حضارة أجدادك العرب
- ٢ -

الفن والعمارة عند العرب

تأليف
محمد إبراهيم الصيحي

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٥٦٢/١٩٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

إن الموضوع الذى نتناوله فى هذه السلسلة من الكتب هو موضوع الساعة بلا ريب ، ففى الوقت الذى نحاول فيه نحن العرب اللحاق بتيار الحضارة الغربية فى مختلف ميادينها ، وتبوأ المركز اللائق بنا بين شعوب العالم وأممه ، يجب أن نضع نصب أعيننا دائماً الحقيقة التاريخية الثابتة التى يعترف بها كل عالم منصف وهى أستاذيتنا ، نحن العرب ، للعالم كله ، وأن حضارتنا العربية كانت بحق الأساس الثابت القوى الذى بنى عليه صرح الحضارة الغربية الحالية .

لهذا حاولنا فى هذه السلسلة التى نقدمها للقارىء العربى فى فخر واعتزاز — أن نبرز بوضوح دور العرب القيادى ، ونسلط الأضواء على حضارتهم الرائعة فى شتى ميادين العلم والمعرفة .

وقد تناولنا فى هذه السلسلة مختلف جوانب الموضوع وضمناها خمسة كتب هى « العلوم عند العرب » و « الفن والعمارة » و « التجارة والاقتصاد » و « والحكم والإدارة » و « أثر العرب فى الحضارة الأوربية » .

وبذلك نقدم للقارىء صورة متكاملة للموضوع الذى ينبغى أن يلم كل عربى بجميع زواياه ووقائعه ، ولا نعتقد أننا عرضنا كل هذه الزوايا والدقائق ، فهذا يتطلب أبحاثاً ودراسات مستفيضة ، ولكننا قدمنا الخطوط الرئيسية والنقاط البارزة ، وسوف يقف القارىء فى هذا الكتاب على روعة الفن العربى ويلم بألوان من هذا الفن الأصيل الذى تلقفه الأوربيون عن العرب وقلدوه تقليداً يكاد يكون أعمى ، ثم نعرض لنماذج من براعة العرب فى فن العمارة سواء فى ذلك المساجد أو القصور أو المدن ، تلك العمارة التى أذهلت أوربا كلها والتى لا تزال بعضها قائمة حتى اليوم تحكى للأجيال نبوغ العرب وتنطق بروعة فنهم ...

« المؤلف »

القاهرة فى مارس ــ أزار ــ ١٩٧٤ .

مقدمة

« شغل المسلمون فى عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين بنشر دين الله وبناء الدولة الاسلامية الجديدة ، فكان من الطبيعى أن تتسم حياتهم فى هذه الحقبة من التاريخ العربى بطابع البساطة ولكن بالتدريج ، وبعد استقرار العرب واختلاطهم بغيرهم من الأمم المجاورة أخذت فنون هذه الأمم تسترعى اهتمامهم ، وبدأوا ينقلون أساليبها ثم يطبعونها بطابعهم الخاص ، وظهر الفن العربى فى مختلف صوره واشكاله » .

يمكن أن نقسم الفنون إلى قسمين رئيسيين ، الفنون الجميلة وتشمل التصوير والزخرفة والنحت والعمارة والموسيقى والتمثيل ، والفنون الصناعية وهى التى تعتمد على الطرق الآلية ولكنها تخرج مشربه بروح الفن الجميلة مثل صناعة الخزف والزجاج والفسيفساء ، والنجارة والصياغة والتكفيت والمنسوجات المزخرفة .

وقد كان للعرب دور بارز فى كل هذه الفنون ، ولكن هذا الدور يتفاوت من فن لآخر ، فلم يتحمس العرب مثلا لفن النحت والتماثيل نظراً للنزعة الدينية القوية التى كانت تسيطر عليهم والتى كانت تمقت الوثنية والأصنام فنفروا منها ، ولكن ذلك لم يمنع من إقبالهم على هذا الفن إبان الحكم العباسى فى بغداد ، والحكم الأموى فى قرطبة ، وفى فترات أخرى من تاريخهم .

وما كاد العــرب يخرجون من جزيرتهم ويضربون فى الأرض فاتحين مجاهدين ، حتى بدأت صفحة جديدة فى حياتهم ، كان من بينهــا إهتمامهم بالفنون وتذوقهم لهــا ، فأخرجوا من الآثار الفنية ما يشهد لهــم بسلامة الذوق والإحساس المتأصل بالجمال ، فقــد ابتــكروا وصنعوا ما بهر العالم كله ، وأصبحت المدرسة العربية فى الفن المنهــل الرئيسى الذى نهلت منه أوربا قرونا عديدة ، والأساس الذى بنت عليــه كثيراً من فنونها .

والفن العــربى له شخصيته القائمة الواضحة المحددة المعالم والجوانب ، وله تاريخه ومميزاته رغــم تأثره فى أدواره الأولى بفنــون بعض الأمم المجاورة كالفــرس والروم ، ولــكنه ما لبث أن اتخذ لنفسه طابعاً عــربياً خالصاً وازدهر كفن عربى أصيل ، تميزه أى عــين خبيرة وفى هــذا يقول العالم الفرنسى جوستاف لوبون « يكفى أن يلقى الإنسان نظرةعلى إحــدى البنايات التى أقيمت فى دور راق من أدوار الحضارة العــربية مســجداً كان أو قصراً ، حتى يجزم أن هــذه البناية عربية ، لا يرى فيها أية صلة ظاهرة بأمة أخرى ، فالإبداع فى فن العرب واضح . بل لقــد ورثت الدول الأخــرى عن العــرب فنهم ، وهذا هو الفرق بين الفن المبتكر وغير المبتكر » .

ويتميز الفن العــربى إلى جانب ذلك كلــه بتنــوع الإنتاج والشكل والزخرفة ، فكان نادراً أن نجد تحفتين

متماثلتين تماماً ، رغم تباعـد أرجاء الدولة الإسلاميـة الممتـدة من حـدود الصين شرقا حتى الأندلس غـربا فقـد امتـازت المبـانى العـربية بطرز من الأعمـدة والأقواس والعقود والقباب والزخارف البارزة ، وبتيجان بعض الأعمدة وكذلك بالزخرفة القائمة على الأشـكال الهندسـية كالمضلعـات والدوائر والمثلثات أو كالزهور والنباتات والطيور والحيوانات •

كما برع العرب فى الزخرفة باستخدام الخط العربى وذلك بكتابة آيات من القرآن الكريم أو عبـارات دينية أو أسماء الرسول والخلفاء أو أبيات من الشعر أو عبارات الترحيب ، كل ذلك بشكل متناسق جميل يجمع بين البراعة والذوق السليم •

وفى الصفحات التالية سوف نقـوم بإلقـاء نظـرة سريعة على الفنون الصناعية التى اشتهر بها العرب ، ثم نعـرض فن العمارة الإسلامى ، مساجـده ومـدنه وقصوره • ثم نختم الكتاب بفصل عن الموسيقى والغناء عنـد العـرب •

ألوان من :

فنون العرب الصناعية

« ترك العرب ثروة فنيه ثمينة تتمثل فى المنسوجات الملونه والزخرفة بأنواعها والستاير والبسط النادرة كما تعد صناعاتهم المعدنية والخزفية والزجاجية آيه فى الذوق الرفيع ، هذا عدا اسهامهم فى انتاج شتى المصنوعات التى تطلبها حياتهم الجديدة » .

عرف العرب صناعة المنسوجات الحريرية والكتانية والصوفية وبرعوا فيها ، وقد اشتهرت دمشق بوجه خاص بنوع من المنسوجات الحريرية عرف باسم « داماسك » نسبة إلى المدينة العربية « دمشق » ، كما عرفت الموصل بنوع آخر من القماش اشتهر باسمها « الموسلين » ، وفى نفس الوقت عرفت الكوفة بنوع من المنسوجات المشجرة المصنوعة من الحرير أطلق عليها اسم « الكوفية » .

كما كانت مصر من أكبر مراكز صناعة الأقمشة ، فإلى جانب ما كانت تنتجه مصانع دمياط وتنيس من الأقمشة الكتانية الملونة ، اشتهرت بصنع نوع آخر من الأقمشة الكتانية الثقيلة عرفت باسم « الدبيقى » ، وقد بلغ من متانتها وثقل وزنها أنه كان يسمع لها من بعيد إذا انشقت صوت عال ، وبيع الثوب الواحد بأكثر من

مائة دينار ، كما صنعب نوعاً من الثياب أطلق عليه اسم « البــدنة » وكان مقصوراً على الخلفــاء وتبلغ قيمة الثــوب أحياناً ألف دينار إذ كان يصنع من خيوط الذهب الخالص ، ولا يحوى من الغزل سدى ولا لحمة ســوى نحو أوقيتين ، وكانت مصر تصدره بطبيعة الحال للعراق حيث مقر الخلافة .

وفى فارس عرفت كازرون بشهرتها فى إنتاج الأقمشة الكتانية وذاع عنها اسم « دمياط الأعاجم » واشتهرت « كرمان » بصناعة الأقمشة القطنية .

وقــد تفنن العــرب فى زخرفة الأقمشــة وتزيينها برسومات متجانسة بل وذهب بعضهم إلى رسم خرائط جغرافية على الأقمشة كما فعل المعز لدين الله الفاطمى حين أمر ٣٥٣ هـ بعمل خريطة من الحرير الأزرق المنسوج بالذهب مبينا عليها أقطار العالم بما فيها من أنهار وبحار وطرق هامة ، وقــد جاءت آية فى الجمال كما ظهــرت فيها مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة .

وقــد صنع العرب أيضا البسط والسجاجيد ، وغمرت المصانع العراقية والسورية والمصرية وكذلك الفارسية ، أسواق العالم بإنتاج ينم عن ذوق سليم يتميز بألوانه المتناسقة وزخرفته الرائعة ، كما أنتجت مدينة الفيوم الستائر المــلونة الجذابة لتغطى النوافذ والأبواب فى القصور ، وقــد بلغ طــول بعضها نحو الثلاثين ذراعاً وكان يبــاع بثلاثمائة دينــار .

وقد ساهمت المرأة فى هـذه النهضة الصناعية وسارت كما يقول آدم متز فى كتابه « عصر النهضة الإسلامية » جنباً إلى جنب مـع الرجل فشاركته فى صناعة النسيج فى مصر ، وكانت تقـوم بغزل الكتان وتترك للرجل مهمة نسجه ، وتتقاضى أجرها حسب إنتاجها ، مما ساعد على وفرة هـذا الإنتاج •

أما فى ميـدان صناعة المعـادن الثمينة ، فقـد برع صناع بغـداد فى إنتـاج أنواع مختلفة من الـكؤوس المنقوش عليها أشكال طيـور فى أوضاع شتى وخاصـة العقبان التى كانت تنقش على جدران الكؤوس وبجانبها كلمة أو عبـارة قصيرة كتبت بحروف مجسمه بارزه ، وكانت هـذه الكؤوس تستخدم عادة فى قصور الخلفاء كما صنعت المصانع العـربية الأوسـمة وبعض الأوانى الزجاجية المرصعة بالجواهر ، وصنع العـرب نقودهم بأيديهم لأول مرة بعـد أن كانوا يستخدمون عمـلات الروم الذهبيـة والفضية ، ذلك بعد أن أمر عبـد الملك ابن مروان عام ٦٢ هـ أن تسك نقـود إسلامية فصنعوا الدينار من الذهب ، والدرهم من الفضـة والدانق من النحاس • وكان يكتب على أحد وجهيها اسم الخليفة ، وعلى الوجه الآخر عبارات مختلفة مثل « لا إله إلا الله » « محمد رسول الله » « اللـه أكبر » « الحمد للـه » وكانت تكتب بحروف جميلة واضحة •

وتميزت الصناعة الدقيقة عند العرب بفن التكفيت ، ويعنى إدخال خيط من الذهب أو الفضة فى المعدن المراد تكفيته ، ويكون هـذا الخيط بارزاً أو مسوى ، وأحياناً يتم تركيب زهـرة من الذهب أو الفضة على إنـاء من الفولاذ أو النحاس ، وقد يتكرر رسم هـذه الزهرة فى شكل متناسق يحده خطان متوازيان يشبهان الإطار •

وقد تجلت روح الإبداع العربية فى ترصيع الأسلحة أو الآنيـة المكفته بالفضـة والموهة بالميناء • وكذلك فى صياغة البللور ، مما يتعـذر الوصول إلى مثله اليـوم لمـا يتطلب من جهـد ودقة وصبر بالغ •

وقـد عرف العرب الصناعات المعدنية الثقيلة بعـد أن اكتشفوا كثـيراً من المعادن فى أرضهم وإستغلوها ، ومنها منـاجم الفضـة والرصـاص والنحاس والحديد والنفط والمـرمر فى شمال فارس وخراسان والأندلس ، والحديد فى الشام قـرب بيروت ، والذهب فى الأندلس قـرب نهر تاجه ، هـذا عدا « الرخام بأنواعه الأبيض والأحمـر والمجزع والخمرى » والخزف • وقـد بادر العـرب إلى استغلال هـذه الثروات الطبيعية وصنعوا المناطق القريبة منهـا •

وخلف العـرب ثروة لا تزال بقاياها قائمة حتى الآن تنطق بمهارتهم فى الصناعات الخشبية المرصعة بالصدف أو العـاج ، فكانت منـابر المساجد وأبواب القصـور

فى أرجاء العالم الإسلامى ترصع عادة بأصداف تأخذ شكلا هندسيا رائعاً يحمل الطابع العربى الأصيل ، كما صنعوا المشربيات المخرمة فى المبانى والقصور « لتمنع رؤية الأجنبى لحريم الدار ، وفى نفس الوقت تسمح بالتهوية والإضاءة » ، ومن الخشب صنعوا صناديق جميلة مطعمه بالعاج كانت تخصص عادة لتقدم فيها الهدايا للملوك والكبراء .

هذا إلى جانب نبوغهم فى فن الحفر على الخشب والجلد .

فن العمارة الإسلامية

« لم يكن لدى العرب قبل الاسلام مبان ذات شأن ولكن بعد ظهور الاسلام ، أصبحت لهم عمارتهم ذات الصبغة العربية والطابع الاسلامى الخاص »٠

كانت أغلب المبانى العربية فى العصر الجاهلى من الطين أو الآجر وكان أقلها من الحجارة ، وكانت كلها — فى العادة — ذات طابق واحد ، وقد حرص العرب — قدر إمكانهم — على حفر بئر فى قلب بيت كل منهم يتزودون منه بحاجتهم من الماء •

ولما جاء الإسلام ، أمر النبى بأن تكون مساجد المسلمين بسيطة ، لا تعقيد فيها ولا تكلف ، وكان المسلمون يفدون على منطقة الحجاز إبان الحج فيشاهدون مساجد المدينة ومكة ، وغيرهما من مدن الحجاز ويقلدونها بإنشاء مثيل يلها فى بلادهم •

ولكن ذلك لم يمنع من تطور المساجد وإدخال تعديلات وإضافات عليها مما سنعرض نه ، أما عن البيوت والقصور فقد بدأت تأخذ طابع الفخامة فأصبحت تبنى ، عادة ، بالحجر أو بمزيج من الكلس والرمل والصلصال والحصباء لا يلبث أن يصبح صلبا كالحجارة بعمل مئات السنين ، بل لقد عمرت بعض الأبنية المشيدة بهذا الخليط زهاء ألف عام •

ولم يتردد العرب فى الاستعانة أول الأمر بمهرة الصناع والبنائين من البلاد التى فتحوها وخاصة دولتى الفرس والروم ، وأخذوا عنهم بعض طرز عمارتهم ثم تحرروا من أغلبه ، وانتهوا إلى ابتكار طراز خاص بهم يتفق وطبيعة بلادهم •

وقد تميزت العمارات الإسلامية — إلى جانب المآذن — التى اختصت بها المساجد ، بالأقواس والقباب والأعمدة والمقرنصات •

أما المآذن فترجع أهميتها إلى اتخاذها آداة لدعوة المسلمين من فوقها إلى آداء شعائر الصلاة ، وتتفاوت أشكالها ، فبعضها مخروطى والآخر أسطوانى وأغلبها متوج بأنواع من الشرفات الصغيرة الدائرية الشكل المعروفة باسم الحواجز ليتنقل فيها المؤذن أثناء الآذان •

أما الأقواس التى يتميز بها فن العمارة العربى ، والتى نلاحظها فى كثير من المساجد والقصور ، فتتخذ أحياناً شكل حدوة الحصان أو الشكل نصف الدائرى ، بينما تعد القباب مميزة للمزارات أو الأبنية الملحقة بالمساجد والتى تضم ضريحاً لأحد الصالحين ، فحيث توجد قبة ، فهناك ضريح تعلوه • أما الأعمدة ذات الطابع العربى فيتوجها عادة تيجان وزخاف من الجص المجسم • بقيت المقرنصات أو المتدليات ، وتعد من

مميزات فن العمارة العربى الذى انفرد بها ، وهى ميزة غير معروفة فى عمارة الأمم الأخرى ، وقد عمت الوطن الإسلامى كله •

وإذا كان الخلفاء الأمويون قد تركوا العديد من المساجد والقصور الهامة ، فإن الخلفاء العباسيين قد خلفوا ثروة معمارية هائلة تتمثل فى مئات المساجد والقصور الضخمة التى تبارى الخلفاء وكبار رجال الدولة فى إقامتها •

أما فى الأندلس ، فقد أكثر العرب من تزيين مبانيهم بالنقوش العربية ، وأكثروا من المتدليات المؤلفة من الأقواس الصغيرة على شكل أقرب إلى خلايا النحل وكان منظرها ساحراً عجيباً ، وأكثروا من استخدام الأقواس نصف الدائرية أو التى تأخذ شكل حدوة الحصان ، ويعد قصر الحمراء فى غرناطة مثلا بارزاً لروعة الفنون الإسلامية فى هذه البقعة من أوربا • ويسوقنا هذا إلى التوقف قليلا للكلام عن الزخرفة عند العرب •

فالواقع أن العرب كان لهم دائماً ذوقهم السليم فى هذا الفن الجديد عليهم ، فعرفوا استخدام الرسوم الهندسية فى النقش ، سواء اتخذت هذه الرسوم شكل نبات أو حيوان أو طائر ، وقد شاع

هذا اللون من النقش على الخشب أو المرمر أو المعادن أو الزجاج ، كما وجدت مجالا واسعاً لها على الجدران حيث تمتد إلى مسافات بعيدة تسمح بتكرار الرسم فى شكل زخرفى جميل •

واستخدم العرب أيضا الخط كوسيلة للزخرفة والتزين ، وقد كان للخط الكو فى الصدارة فى هذا المضمار بسبب طبيعة رسمه الذى أهله ليكون أداة ممتازة فى الزخرفة ، فكان من الخصائص البارزة للفن الإسلامى ، وقد كثر استخدامه على الجدران والأقمشة واللوحات والأوانى على شكل شريط زخرفى •

فكانوا يكتبون بهذا الخط آيات قرآنية كريمة أو عبارات « بسم الله الرحمن الرحيم » أو « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أو بيتاً من الشعر أو اسم الخليفة ، وإلى غير ذلك من الكلمات أو الجمل المناسبة •

ويعلق العالم الفرنسى جوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » على ذلك بقوله : « لقد بلغ الخط العربى من الصلاحية للزينة ما جعل رجال الفن المسيحى فى القرون الوسطى فى عصر النهضة يكثرون من استنساخ ما كان يقع تحت أيديهم اتفاقاً من الكتابات الدينية الإسلامية ليزينوا بها المبانى المسيحية وخاصة الكنائس ، وفى إيطاليا الشىء الكثير من هذا القبيل » •

وإلى جانب ذلك عـرف العـرب الزخـرفة بالجص بالنقش البارز أو تدوين عبارات به ، وقـد كثر هـذا اللون بشكل خاص فى الأقـواس والأبواب وعـدد كبير من المساجد والقصور .

ويسجل للعرب براعتهم فى استخدام الألوان استخداما يدل على سلامة الذوق ، فإن نقوشهم الزاهيـة البراقة التى لا تـزال موجـودة للآن على الجـدران والأوانى الزجاجية والخزفية والمرمرية والفخارية والفسيفساء — تنطق ببراعتهم الفائقة فى هذا المضمار .

وكان للعـرب ذوقهم الخاص فى صناعة الفسيفساء ، فكانوا يختارون لهـا الألوان المتناسبة ، ويعمدون إلى تزيين جدران القصـور أو محاريب المساجد الكبيرة بقطع من الفسيفساء الملونة مـع قطع من الزجاج التى تأخـذ شكل مكعبات صغيرة أحياناً طول ضلعها نحـو سنتيمتر واحـد ، ويشمل بعضهـا على أكثر من لون مما يحدث تمازجاً بين الأضواء المنعكسة ، وكانوا يطلون بعض هذه المكعبات بطبقة ذهبية يدوم لمعانها زمنا طويلا بلغ بالنسبة لبعضها نحو الألف عام .

وإلى جانب ذلك كله صنع العـرب المرايا . والمصابيح الزجاجية التى زينوا بهـا المساجد والقصور والأوانى الخزفيـة المطليـة بالمیناء ذات البريق ، وغـير ذلك من

الصناعات التى قلدها الأوربيون ونقلوها مع ما نقلوا من تراث العلوم والفنون الإسلامية •



« آلاف من قطع الفسيفساء الجميلة الملونة تزين جدران أحد المساجد »
« يلاحظ استخدام الكلمات العربية فى زخرفة السقف فى شريط دائرى طويل مجسم »

ويلمس كـــل من ينعم النظـــر فى القباب الأربع التى بناها المنصور على أبواب مدينة بغداد وهى باب خراسان وباب الشـــام وباب البصرة وباب الـــكوفة ــ عظمة فن الزخرفة فى عهده ، فقـــد بلغ قطر كل قبة خمسين ذراعا ، وزخرفت بالذهب ، وحليت بصـــور مجسمـــة ورســـوم بديعـــة .

ورغم تحرج المسلمين عن النحت أو التصوير وعـــدم تحمسهم لممارسة هـــذين الفنين ، فإننا نلاحظ أن هـــذا الحرج بـــدأ يضعف بمرور الوقت نظراً لعـــدم وجـــود نص صريح فى القرآن يحرمهما أو يمنعهما . وقد روى المقريزى أنه عثر فى قصر الخليفة الفاطمى المستنصر حين نهب عام ٤٦٠ هـ (نحـــو ألف قطعـــة من المنســـوجات المصـــورة ، وكانت البسط المصـــنوعة من نسائج الذهب والحرير المخمل مزينة بتصاوير بعضها لآدميـــين وبعضها لحيوانات أو طيـــور) مما يـــدل على حـــذق مصـــورى العـــرب فى مصر فى هـــذه الفترة ، كما تـــكلم عن العثور (على صـــورتين لمغنيتين يكاد النـــاظر إليهما يجزم أنهما مجسمتان ، إذ تبـــدو الأولى وقـــد ارتدت ثوباً أبيضـــا رسمت على جدار أسود اللون فتبدو كأنها داخلة فى الجدار المصورة عليـــه ، بينما تبـــدو الثانية على العكس ، ترتدى ثوباً أحمر اللون على جدار أصفر وتبدو كأنها خارجة منه نحو النـــاظر) كما تكلم المقـــريزى عن رسم « سلم »

كان موجـوداً فى أحـد قصـور القـاهرة ، وقـد جاء الرسم متقناً بحيث يبـدو كما لو كان سلما حقيقياً •

وتحتوى كثير من المخطوطات العربية على صـور شتى لأشخاص وطيـور وحيوانات ، كما ذكرنا ، وظهـر ذلك بوجه خاص فى الأندلس ويعـد قصر الحمـراء نمـوذجا ناطقا لهـذا اللـون من الفن ، فإن سقف إحدى قاعات هـذا القصر • وهى قاعة الحكم ، تشمل وحدها على صـور لموضـوعات مختلفة تصـور الحياة الاجتماعيـة والسياسية والعسكرية السائدة إذ ذاك ، ومنهـا منظـر لفارس عـربى يطارد فارساً أوروبيـاً مطاردة المنتصر ، ومنظر آخر لمجلس أمراء من العرب ، هـذا عدا عشرات المناظر المتناسقة التى تؤلف باقات فنيـة بديعة •

أما التماثيل فـكان إنتـاج العـرب لهـا نادراً بوجه عام ، ولكن رغم نفـور المسلمين من هـذا الفن وعـدم إقبالهم عليـه ، فقـد وجـد فى بعض القصـور العربية بعض التماثيل ، أما فى الأندلس ، فقد تم صنع تماثيل كثيرة ويعـد قصر الحمراء بما حوى من تماثيل عـديدة للأسود والعقبان خاصة فى قاعة الأسـود ، تحفة فنية ، ما تزال حتى اليوم مقصد الزائرين من كل أنحاء العالم ، وموضع دراسة العلماء والفنيين وتحليل دقيـق لخصائص الفن العـربى فى المعاهد والكليات الفنيـة •

المساجد فى الإسلام

كمظهر للعمارة الدينيـة

« العمـارة الاسـلامية ، أما دينية وتتمثل فى المساجد وأما مدنية وتتمثل فى المدن والقصور ، وأما حربية تتمثل فى القلاع والحصون ، وسنعرض فى الصفحات التالية للونين الأول والثانى لتعـدد المظاهر الفنية المختلفة فيهما » .

للمسجد منزلتـه العميقة فى نفـوس المسلمين ، وقـد احتل هـذه المـكانة الرفيعة منذ وجـد ، فقد كان إلى جانب اتخـاذه مكاناً لتأدية شـعائر الصـلاة واجتماع المسلمين فيـه خمس مرات كل يوم ، مركزاً لنشاط متعدد الجـوانب ، دينى وثقـافى واجتماعى وسـياسى ، ففى المساجد كانت تؤخذ البيعة للخلفاء وعلى منابرها كانت تلقى خطبهـم الأولى التى تحـدد منهـاج كل منهم وطريقته فى تسيير دفـة الحـكم وفى رحابه كان يجتمـع الصحابة ، وتستقبل الوفود القادمة من الأقطار المجاورة ، وفيـه كانت تعلن أنباء الحروب والانتصارات ، ويستنفر المجاهدون للقتـال . هـذا إلى جانب اتخاذ داراً للعلم ومـكاناً للدرس ، وفيـه يعقد القاضى جلسات محكمته فيقضى بين الناس . وكانت المساجد تظل مفتوحة الأبواب ليل نهار ، إلا فى أحوال قليلة . تستقبل الوافدين إليها من الغرباء الذين يأوون إلى بيت الله ، مما يخفف عنهم متاعب رحلتهم وأسفارهم .

فالمسجد إذن كان بمثابة مركز إشـــعاع دينى وعلمى واجتماعى قوى يعتبره كل مسلم بيت الله ، ومن هنـــا كان الخلفاء والحكام فى مختلف أنحاء العـــالم الإسلامى يهتمون به ، فأدخلوا على نظام المسجد البسيط الذى أقامه الرسول الـــكريم ، الـــكثير من التعـــديلات والإضافات والتحسينات المتجددة الدائمة ليتفق المسجد ومـــكانته العميقة فى نفـــوس المسلمين .

لقـــد أراد النبى لمسجـــده أن يكون بسيطا لا تعقيد أو مغالاة فيـــه ، وقلد المسلمين أول الأمر هذا النظام ، ولـــكن بمرور الوقت بـــدأ الخلفاء مـــع مطلـــع عهـــد الأمويين يعدلون ويزيدون فى بنائه ، وكان معـــاوية أول من اتخذ لنفسه مقصورة فى المسجد الذى يصلى فيـــه بدمشق ، وكان ينتظـــر فيهـــا حتى يحين موعد الصلاة خشية أن يتعرض لحادث اغتيال كما وقع لعمر فيعتدى عليـــه أحد خصومه السياسيين .

وظل هـــذا النظام ســـائداً ومعمـــولا به فى كثير من المساجد حتى الوقت الحاضر ، لأنه وجد هوى فى نفس الخلفاء من بعد معاوية ، سواء فى أسرته أو فى الأسرات الحاكمة الأخرى فى المشرق والمغرب على السواء .

ومن التطـــورات التى أدخلت على المـــآذن ، اتخاذها لأشكال هندسية أو معمارية مختلفة ، وتفنن المسلمون فى تزيين المحراب وهـــو الذى يحدد جهـــة القبلة وكان

هـــذا التزيين يتمثل عـــادة فى بعض الآيات القـــرآنية الـــكريمة أو بكلمات وأحاديث دينية أو أسماء الرســـول والخلفاء الراشدين هـــذا إلى جانب طلائه بألوان شتى وزخرفته برسوم متناسقة. كانت تتفاوت من مسجد لآخر حسب أهميته وضخامته •

كما أضيفت الايوانات إلى كثير من المساجد •

وإلى جانب ذلك كله ، لم يبخل المسلمون على إضاءة المساجد ليلا بالقناديل الثمينة التى كانت تعلق فى سلاسل حـــديدية ، وذلك منـــذ الغـــروب إلى ما بعـــد صـــلاة العشاء ، وقد تعالى الحاكم بأمر الله فى مصر فى إضاءة مسجده ، حتى يروى أنـــه أمر بإنارته بتنور كبـــير من الفضـــة بلغ من ضخامته أن اضطر العمال إلى خلـــع أبواب المسجد حتى يتسنى إدخال التنور فيـــه ، ويقال بالقـــاء نظرة سريعة على قصة بنـــاء الكعبة •

وفى الصفحات الآتية سوف نعرض عدداً من المساجد المعروفة فى العالم الإسلامى فى المشرق والمغرب ، وسنبدأ بـ لقـــاء نظرة سريعة على قصة بنـــاء الكعبة •

قصـــة بنـــاء الـــكعبة الشريفة :

كان إبراهيم عليـــه السلام ينزل فى مشـــارف الشام فضاقت زوجتـــه ســـاره بجاريته هاجـــر التى ولدت له إسماعيل ، وكان إبراهيم باراً بزوجته فقبـــل، أن يقصى الولد وأمـــه عنها ، وارتحل بهما إلى تلك البقعـــة التى

اختارها الـــه لمنزل إسماعيل وديعته فى ظــل دوحة فى بطن هــذا الوادى فى مكة على قيـــد خطوات من ربوة جرداء ارتفعت عليهـــا قواعد البيت الحرام فيما بعد •

وعاد إبراهيم بعـــد أن ذكـــر لهاجر أنه يتركها هى وابنها فى رعاية اللـــه •

وشعر الطفل بظمأ شـــديد ، فأخـــذت أمه تسير بين جبلين قريبين هما الصفا والمروة سبع مرات تبحث عن مـــاء دون جدوى ، فخرج لهـــا جبريل عليه الســـلام فسارت خلفـــه حتى ضرب الأرض برجله فظهر المـــاء غزيراً فـــوق الأرض وكان هـــو ماء زمزم ؛ وكان ذلك إيذانا بمولد مكة كمدينـــة عامرة ، إذ وفـــدت قبيلة من جرهم عائـــدة من الشام أدهشها أن تجد المـــاء يتفجر فى هـــذا المـــكان كان قفراً مجدباً فأستأذنت هاجر فى النزول والإقامة فأذنت لأفـــرادها الذين بعثـــوا إلى آهليهم •

وترعرع الغلام وتزوج جارية لهـــذه القبيلة ، وكانت أمه قـــد ماتت فاشتغل بالصيد وأقبل إبراهيم من الشام ذات يوم على ابنه فقال له : « إن اللـــه أمرنى أن أبنى له بيتاً » ثـــم قاما يحفران لإقامـــة القـــواعد ، وحمل إسماعيل الحجارة وشرع الشيخ فى البناء فلما ارتفـــع البناء وشـــق على الشيخ تناوله ، قرب إسماعيل حجراً

يقوم عليـــه أبوه ويبنى حوله نواصى البيت حتى انتهى فسمى الحجر مقام إبراهيم لقيامه عليه .

وهكذا أنشأ إسماعيل مـــكة ، ورفـــع أبوه بمعونته قواعد البيت .

ومرت عـــدة قرون ، وولد محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وكانت أحجار الكعبة قد أخذت تتصدع فارتاعت قريش وحاولت فى أمرها ثم عزمت على تجديد بنـــائها وشارك النبى وهو شاب فى نقـــل حجارتها مع بنى هاشم وبقية القبائل التى اختصمت فيما بينها عنـــدما جاء دور الحجر الأسود ، ولكن محمد أرضـــاهم جميعاً بحكمته وتم إعادة بنـــاء الكعبة على ارتفاع ١٨ ذراعاً ورفعـــوا بابها وجعلوا لها سقفاً ثم أصبحت مزارا لكافة المسلمين فى الحج وأصبحت تضم المسجد الحرام .

ونعـــود بعـــد ذلك إلى المساجد الإسلامية الهامة .

المسجد النبوى الشريف « المدينة المنورة » :

كان من الطبيعى ، بعد هجرة النبى صلى الله عليـــه وسلم إلى المدينـــة أن يبنى بهـــا مسجدا تقـــام فيـــه شعائر الصلاة ، ويتخذه مركزاً يجتمع فيـــه بالمسلمين ، يدير منـــه أمور دينهم ودنياهم . وقـــد ساهم الرسول الـــكريم بنفسه فى بناء هـــذا المسجد ، الذى تميز بطابع البساطة التامة وهو ما يتمشى مع بساطة الدين الجديد الذى حمـــل رسالته ، فلا زينـــة فيـــه ولا نقـــوش ولا مغـــالاة .

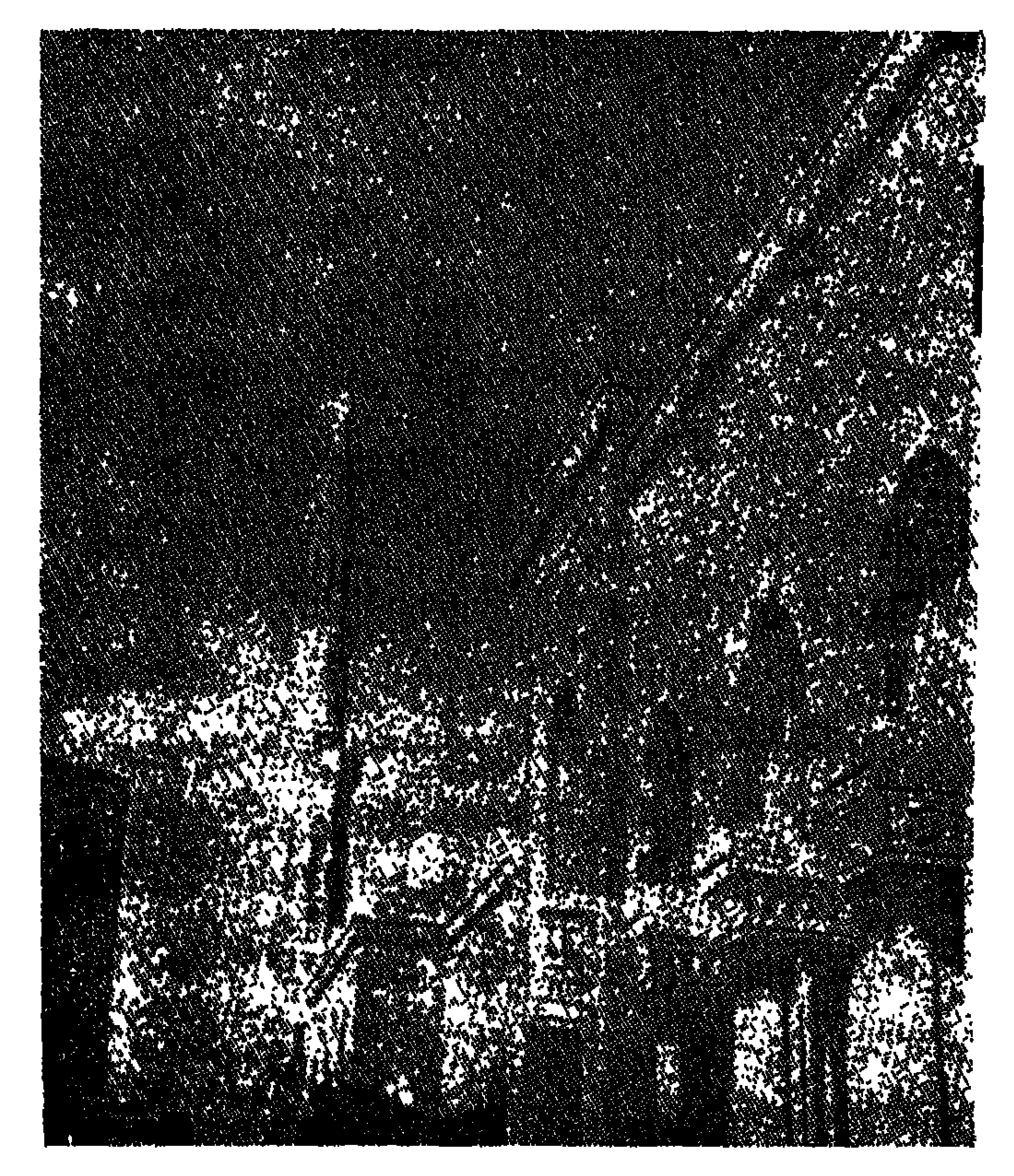
وقـد بنى المسجد من اللبن ، واتخذ سقفه من جريد النخيل وأقام أعمدته من جزوعه وقـد شيد هذا المسجد على قطعة أرض يملكها طفلان يتيمان صـغيران ، عرض الوصى عليهما وهو أسعد بن زراره أن يهبها دون مقابل لهـذا الغرض النبيل ، ولـكن النبى رفض فى إصرار ، ونقده الثمن المناسب .

وكان للمسجد بابان ، يطلق على أحـدهما اسم باب عائشة والآخر باب مليكة ، أما قبلته فـكانت تتجه نحو بيت المقـدس ، ثم تم تحويلها بعد ذلك شطر الـكعبة لمـا أصدر اللـه أمره بذلك للمسلمين .

وأخـذ المسجد يتسع وتزداد مساحة رقعته عاماً بعد عام بتزايد المسلمـين . وقـد بـدأت هـذه الزيادات فى عهـد الرسول حـين أمر بضم مساحة أخـرى من الأرض إليـه لمواجهة زيادة عـدد المصلين بعـد كثرة دخول الناس فى الإسلام وإقبالهـم على أداء الشعائر فى المسجد . وتعـددت هـذه الزيادات فى عهـد عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان بعـد أن لمسا عدم تناسب مساحة المسجد مع كثرة القاصدين لزيارة قبر الرسول من مختلف أنحاء العـالم الإسلامى ، فأمر عمر بإضافة دار كانت للعباس بن عبـد المطلب إلى المسجد وكانت تجاوره ، فهدمت وتم توسيع المسجد بهـا ، أما عثمان فأدخل عليـه بعض التحسينيات والتجديدات ليجمـه

مجعن أعمدته من الحجارة بدلا من جزوع النخيل وسقفه من الساج بـدلا من الجريد .

لكن يعـد التجديد الذى أدخله عمر بن عبد العزيز فى عهـد الوليد ابن عبد الملك من أكبر وأهم التجديدات التى أدخلت على هـذا المسجـد فى صـدر الإسلام ، وكان عمر يشغل منصب والى المدينة ، فضم إلى المسجد حجرات زوجات النبى فزادت مساحته ، أما الوليد فقد أمر بالاستعانه بخبراء وعمال من الدولة البيزنطية بلغ عـددهم الثمانين حضروا بموافقة إمبراطور الروم الذى لبى رغبـة الوليد فى هـذا الشأن ، وقـد أنفق الخليفة الأموى على هـذا المسجد عن سـعة ، ولم يضن على تجـديد وتجميل مسجـد النبى بمال أو جهـد ، فزين جـدرانه بالفسيفساء والأحجار الثمينة ، ودعم أعمدته بالحديد . وظل الحكام يجملون هـذا المسجد فى فترات مختلفة ومتباعدة وما زالت التجديدات والتحسينات قائمة فيـه حتى الآن .



« واجهـة المسـجد النبوى فى المـدينة المنورة من الخارج ، كما تظهـر اليوم »

مسجد عمرو بن العاص « الفسطاط » :

ويعتبر أقدم مسجد فى مصر ، ويعـرف أيضاً باسم المسجـد العتيق وكان المسجـد الجامـع الوحيـد فى الفسطاط ، ولا يزال قائماً حتى الآن فى حى مصر القديمة بالقاهرة • وقـد أسسه عمرو بن العـاص عام ٢١ هـ بعـد أن فتح مصر ، واتخذ قطعة من الأرض فى مدينة الفسطاط العاصـمة الجديدة لمصر الإسلامية ، ـ كانت هـذه الأرض تقـع شمالى حصن بابليون ويملكها قتيبة بن كلثـوم التجيبى ، وقـد تبرع بهـا ليبنى فوقهـا عمرو مسجداً للمسلمين •

وكان المسجد صغيراً فى بادىء الأمر ، فلما جاء الوليد بن عبد الملك أمر واليـه فى مصر « قـره بن شريك » بتوسيع هـذا المسجد ، وبنى له محرابه لأول مرة وقد اتخذ رسم هـذا المسجـد كنمـوذج للمساجد فى مصر زمناً طويلا ، فكانت كلها تبنى على غراره •

جامع عمر « القـدس » :

وينسب هـذا المسجد إلى عمر بن الخطاب ، رغم أن عمر لم ينشىء هـذا المسجد بل لاختياره المـكان الذى يقام فيه فقط • ويعد من أقـدم المساجد فى الإسلام ، ويقـوم فى مدينـة القـدس ، ويشغل مساحة واسـعة تحتط بها سور ، وقد فرغ من بنائه عام ٧٢ هـ (٦٩١م)•



« منظر خارجى تظهر فيه قبة جامع عمر فى القدس ، وهى »
« القبــة التى تعــلو الصخرة المعلقة »

وللمسجد أربعــة أبواب يقابل كل باب منهــا إحدى انجهات الأربع • وهو مكسو بالرخام فى القسم الأسفل من جــدرانه ، ومطعم بالميناء والفسيفساء والرســوم المتعددة الألوان بأشكالها الهندسية الرائعــة ، وهو فوق ذلك مزين بالصحائف البرونزية المطرقة ، كما أن نوافذه مزينــة بآلاف القطع الزجاجية الملونة ، وللمسجد منبر رخامى جميل الصنع تعلوه قبــة صغيرة •

أما القبة الـكبيرة نفسها التى تتــوج الجامع كله • فتحوى الصخرة المشرفة التى يتميز بهــا هذا المسجد ، وهى الصخرة التى هم إبراهيم بذبح إبنــه إسماعيــل عليها إمتثالا لأمر اللــه تعالى ، ويبلغ طول هذه الصخرة سبعة عشر متراً وارتفاعها مترين يحيط بهــا سياج من حــديد ترتكز عليــه •

ويعتبر هــذا المسجد ، ثالث الحرمين الشريفين — بعد الحرم المكى فى مكة والحرم المدنى فى المدينة — ويتميز بهــذه القبة التى تأخــذ شكلا دائريا ترتكز على أربــع ركائز ضخمة ، وقــد صــمم انسقف والأعمــدة بحيث يستطيع الناظر أن يرى جميع أقســام المسجد من أية نقطة بداخله •

المسجد الأموى « دمشــق » :

ويعــرف أيضا باسم مسجد دمشق • بدأ بناء هــذا المسجد أبو عبيدة ابن الجراح ، ولكن واصل البناء وأتمه

الوليد بن عبد الملك واستغرقت الفترة التى تم بناء هذا المسجد خلالها ثمانى سنوات (بين عامى ٨٨ هـ ، ٩٦ هـ) .

وقد أنفق الوليد على بناء هذا المسجد وتجميله ببذخ بالغ ، حتى يقال أن السجلات التى تضمنت نفقات البناء نقلت إلى مقر الوليد على ١٨ بعيراً ليدرسها ويقرها ، ولكن الخليفة الأموى لم يشأ بحثها فأقرها دون مراجعة وقال « هو شىء أخرجناه لله ، ولا نرجو من ورائه شيئاً » . وقد أسرف الوليد فى الانفاق على هذا المسجد ، وتأنق فى بنائه وتزيينه وتجميله حتى ليقال أنه خصص لذلك خراج دولته لمدة سبع سنوات مما جعل الناس يوجهون إليه النقد ويتهمونه بالتبذير والإسراف ، وإنفاق أموال المسلمين فى كماليات لا تعود عليهم بفائدة ، ورماه بعضهم بقصر النظر ، وترامى إليه هذا الاتهام ، فخطب فيهم فى المسجد عارضاً وجهة نظره ومدافعاً عنها ومذاكراً إياهم أنه جعل من مسجدهم هذا إحدى عجائب الدنيا .

والواقع أن الوليد قد تفنن فى تجميل وتزيين هذا المسجد ، ودفعه ولعه الشخصى بفن العمارة إلى الإنفاق بلا حساب على مسجده ، فزين محرابه بالجواهر الثمينة ، وجعل سلاسل قناديله من الذهب والفضة وغطى جدرانه بالفسيفساء ، وكتب على باب المسجد

باللازورد على رقائق مذهبه هـذه العبارات « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إلـه إلا اللـه ، هو الحى القيوم ، لا إلـه إلا اللـه وحده لا شريك له ، لا نعبد إلا إياه ، ربنـا اللـه واحـد ، وديننا الإسـلام ونبينا محمـد صلى اللـه عليـه وسلم ••• أمر ببناء هـذا المسجد عبـد اللـه الوليـد أمـير المؤمنـين فى ذى الحجـة سـنة ٨٨ هـ) •

ولمـا جاء عمر بن عبد العزيز راعه إسراف الوليد فى الإنفاق على هـذا المسجد ، مما أثر على بيت المـال ، فأمر بنزع السلاسل الذهبيـة وقطـع الفسيفساء من المسـجد للانتفاع بثمنها فيما يهـم المسلمين ، ولـكنه عـدل عن قراره بعـد أن سمع عن غيظ بعثة من سفراء الروم كانت قـد قـدمت لزيارة دمشق ، وطلبت زيارة هـذا المسجد فلمـا زارته أذهلها ما شاهدت من عظمته وفخامته وقال رجالهـا : « أن العـرب إذا كانوا قـد توصلوا إلى كـل هـذا الفن ، فلا شك أنهـم معمرون طويلا فى الأرض » •

مسجد قرطبـة « الأندلس » :

يعـد جامع قرطبة من أهم وأشهر المبانى العربية فى الأندلس • وقـد بدأ عبد الرحمن الأول بإنشاء هـذا المسجد (١٦٨ هـ) وأتم ابنه هشام بناءه (١٧٧ هـ) • ومن بعده تعهـده الأمراء والحكام بالتجميل والزيادة

حتى أصبح من أجمل المساجد فى العالم الإسلامى •
وقد بنى هذا المسجد فى الفترة التى كان الفن الإسلامى فيها فى أوج مجده • وكانت الدولة فى الأندلس على جانب كبير من الرخاء ، فاجتمع المال والفن مع الرغبة فى خلق آية من آيات الفن الإسلامى فكان هذا المسجد الذى فاق بعظمته وروعته معابد الشرق كافه •

وكان المسجد يحوى ١٩ صحناً واسعا ، ٣٨ صحناً ضيقاً ، وكان له فى واجهته الجنوبية وحدها وهى المقابلة للوادى الكبير ١١ بابا ، وكانت قبته البديعة تستند إلى أعمدة رائعة من مختلف أنواع الرخام أخذت شكل رقعة الشطرنج بلغ عددها ١٠٩٣ عموداً كانت تؤلف فى مجموعها غابة بديعة من الرخام والجرانيت ويعلو تلك الأعمدة وتصل بينها أقواس رائعة منضدة مصنوعة على شكل حدوة حصان • أما بواكى المسجد الضخمة فقد بلغت بعد إتمام بنائه ١٦ من الشرق للغرب ، ٣١ من الشمال للجنوب ، وقد تفنن المعماريون فى طلاء أبواب المسجد البالغ عددها ٢١ بابا بالنحاس الأصفر ذى البريق •

أما مبنى هذا المسجد فقد صنع من العاج والخشب النفيس ، وقد بلغت عدد القطع الصغيرة التى تم تركيبها ليتكون منها منبر هذا المسجد أكثر من ٣٦٫٠٠٠ وصله عاجيه وخشبية دقيقة وقد كان للمسجد محراب رائع زين بالفسيفساء وعقد فى

أطرافه إطارات من الذهب والإبريز واللازورد .

وكانت الثريات تتناثر فى أرجاء المسجد لإضاءته ليلا . وقــد استخدام فى هــذه الإضاءة مئات الثريات تزينها شموع ضخمة كان يبلغ زنة الواحدة منها نحو الأربعين رطلا ، كما زود هذا المسجد بتنور من النحاس الأصفر يحمل وحــده ألف مصباح .

وقــد قــدر ما أنفــق على هــذا المسجد فى عهــد عبد الرحمن الأول وحــده بأكثر من ٨٠٫٠٠٠ ديناراً ، كمــا تبارى إبنـــه هشام ومن جاء بعــده فى تحسينه وتجميله .

وقــد كان هناك جهاز بشرى ضخم مهمته السهر على راحة المصلين وصيانة المسجد وملاحظة نظافته ، وتوفير المــاء والإضاءة وإحراق البخور من العنبر والعــود ، وقــوام هذا الجهاز ثلاثمائة موظف انقطعوا لخدمته .

وقــد نال ما تبقى من هــذا المسجد من آثار إعجاب ودهشة المستشرقين والعلماء الأوربيين ، وأعلنوا أسفهم البالغ على ما آل إليــه هذا المسجد فى عهــد الأسبان بعــد خــروج المسلمين . وفى هــذا يقــول العــالم الفرنسى جوستاف لوبون : « لقــد عمــد الأسبان إلى تخريب هــذا المسجد فنزعوا الفسيفساء من جدرانه ، وكلسوا — أى غطوا بالجبس — الزخارف الرائعة التى زين بهــا ، وطمسوا الكتابات المنقوشة عليــه وباعوا

تحف السقف بعد أن نزعوها وعبثوا بهـا ، ولم يفلت من التخريب سوى محراب هـذا المسجد الذى لا نرى أحسن من زخرفته وسنائه فى أى أثر قـديم أو حديث مماثل ، وهو من أجمل ما تقـع عليـه عين بشر » •

الجامع الأزهر « القاهرة » :

إذا كانت القـاهرة تتميز بطابعهـا الشرقى وبهـذا العـدد الكبير من المساجد المنتشرة فى أرجائها ، بمآذنها البديعة الممتدة فى سمائها ، فإن الجامع الأزهر بلا ريب يأتى فى قمـة هـذه المساجد • فهو أهمها وأكبرها على الإطلاق ، وهو أحد الآثار الهامة التى خلفها الفاطميون فى القـاهرة عاصمتهم الجـديدة ، إذ ما كاد جـوهر الصقلى قائـد المعـز لدين اللـه الفاطمى يفتح مصر سنة ٣٥٨ هـ حتى وضـع مـع أساس مدينة القاهرة ، أساس الجامع الأزهر فى ١٤ رمضان ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) • وقـد استغرقت عملية بناء هذا الجامع عامين كاملين •

وكانت مقصـورة المسجد التى بناها رائعـة يحيطها ويتخللها ٧٦ عمـوداً رخاميـا أبيض اللون فى صفـوف منتظمة ، وبجوار المقصورة التى خصصت للصلاة ، ترك مكان آخر متسع غـير مسقوف رصف بالحجر يسـمى صحنا يودى الناس فيه الصلاة عنـد ازدحام المسجد بالمصلين أيام الجمع والأعيـاد •

وقد أخذت مساحة هذا المسجد تتسع وتزداد مقصوراته وأعمدته حتى بلغت ٣٧٥ عموداً لمقصورتين والمبانى الملحقة بالجامع ، وأما المحراب القديم ويعرف الآن باسم القبلة القديمة ، فقد بنيت ثمانى محاريب غيره بقيت منها ستة الآن ، كما أرتفع عدد المنارات إلى خمس كان ينطلق منها الآذان فى وقت واحد ، فتتلقف مساجد القاهرة النداء وترده بدورها .

وكان المنبر مصنوعاً من الخشب المخروطى الجميل الصنع . وزينت جدران المسجد بآيات كريمة كتبت بالخط الكوفى الجميل على طول كثير من حوائطه . وقد أدخل عليه كثير من الحكام زيادات كثيرة ، وأنشأوا المساكن لطلاب العلم الذين يتلقون العلم فيه ، بصفته أكبر جامعة إسلامية فى العالم يقصدها الطلاب من كل مكان ، فيقدم للغرباء منهم المسكن والمأكل والتعليم دون مقابل .



المدن والقصور العربية كنماذج رائعة للعمارة المدنية

« بنى العرب كثيرا من المدن الهامة التى لا زالت قائمة حتى اليوم ، وعمروا مدنا أخرى ورفعوها كلها الى مصاف العواصم العالمية ، وتناثرت المدن العربية فى الوطن الاسلامى شرقا وغربا تزينها القصور الضخمة ، فكانت أمثله ناطقه لتقدم العمارة المدنية عند العرب ، وسنبدأ بالقاء نظرة سريعة على المدن الهامة » .

كتب ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع العربى فى مقدمته المشهورة عن الشروط التى يجب أن تتوافر فى المدينة عند بنائها فقال تحت عنوان « باب ما يجب مراعاته فى أوضاع المدن » : (يجب عند اختيار موضع مدينة مراعاة طيب هوائها ، فإن الهواء إذا كان راكدا أو مجاورا للمياه الفاسدة أو المناقع المتعفنة أو المروج الخبيثة أسرع إليه العفن ، فأسرع المرض للإنسان والحيوان معاً ، وتفشت الحميات ، كما أن قرب المدينة من الزرع يمكن الناس من الحصول على الأقوات ، وقربها من البحر يساعدهم على الحصول على حاجاتهم من البلاد النائية ، كما يجب أن تحاط المدينة بالأسوار . وأن تبنى إما على هضبة مرتفعة أو باستواء بحر أو نهر بها حتى لا يصل العدو إليها ، إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة) .

وهذه الشروط التى أوردها ابن خلدون رغم أنها وردت متأخرة إلا أن العرب قد حرصوا فعلا على تحقيق أغلبها أو بعضها فى كل مدينة قاموا ببنائها •

وقد عمل العرب على تزويد كل مدينة بحاجتها من المرافق العامة فبنوا بها المساجد ، وأقاموا الميادين الرحبة وشقوا الطرق المعبدة وأنشأوا المنتزهات ونظموا الأسواق وأكثروا من الحمامات العامة •

ويحسن أن نقف قليلا عند هذه الحمامات التى أكثر العرب من إنشائها فى مدنهم حتى يقال أنها بلغت فى بغداد وحدها إبان العصر العباسى الأول أكثر من خمسة آلاف حمام ، كانت فى جملتها تقام عنى نمط واحد ، وتشتمل على متكأ كبير فى ردهته ينال المستحم فيه قسطا من الراحة ويخلع ثيابه وينتعل نعلا من خشب ، ثم يلتف بمنشفة ، ويدلف إلى غرفة الحمام وبها حوض من الماء تبلغ حرارته نحو الخمسين درجة ، فيستلقى على الرخام ، ويدلك عامل خاص جسمه جيداً لتنظيفه ، ثم يسمح له بالخروج إلى ردهة أخرى فيستريح قليلا ويرتدى ملابسه ويغادر الحمام •

ولا شك إن حرص العرب على إنشاء الحمامات بهذا الشكل وعلى هذا النطاق الواسع ، دليل على اهتمام العرب كشعب بالنظافة وحرصهم عليها •

وقـــد عالج العـــرب فى قصـــورهم وبيوتهم مشكلة ازدياد فترة الحر فى فصل الصيف وتغلبوا عليها بطريقة غاية فى البساطة ، تهـــدف إلى تـــكييف الهـــواء بالمعنى المعـــروف اليـــوم ، ذلك إنهـــم كانوا يثبتون قطعاً من الخيش المبلل بالمـــاء بحذاء فتحات الأبواب والنوافذ ، فإذا اندفع الهواء الحار إلى الداخل تأثر برطوبة المـــاء وأصبح بارداً منعشاً ، كما لجأ البعض إلى تثبيت مروحة كبـــيرة فى سقف الحجرة يتدلى منهـــا حبل ، ثـــم ترش المروحة بالماء المخلوط برائحة طيبة كماء الورد فإذا أراد الجالسون هواء رطبا زكيا ، فما عليهم إلا أن يجذبوا الحبل فتتحرك المروحة دافعـــة الهـــواء البـــارد المعطر نحـــوهم .

وتغلب العرب على ظاهرة تراكم ميـــاه الأمطار ، عند اشتداده ، فوق أسطح بيوتهم ، فأدخلوا نظام الأسطح المسنمة أى المحدبة على غرار البيوت الأوربية الحالية ، ونجحوا بذلك فى التغلب على هـــذه المشكلة .

المدن العربية

وفيما يلى نستعرض عددا من المدن العربية ·
الهـامة التى أنشأها العرب » ·

البصرة

فى عهـد عمر بن الخطـاب وفى عـام ١٦ هـ ، اختط عتبة بن غزوان مدينة جـديدة تنزل فيهـا القبـائل العربية التى نزحت إلى العراق ، واختار المكان الحالى الذى تقع فيـه مدينـة البصرة ، وقـد راعى عتبـة عنـد اختيـار هـذا الموقع توافر الهواء النقى والكلأ الوفير والمراعى الغنية وامتداد الفضاء الرحيب ، وقـد أقر الخليفـة عمر هـذا المكان بعد أن علم أن هـذا الموقع لا يحول بينـه وبين المسلمين بحر أو عائق يعرقل إمداد المدينـة الجديدة وسكانها المسلمين بالجنـد إذا لزم الأمر ·

وقـد بدأ عتبـه بإنشاء المسجد ودار الإمارة ، ثم ترك لكل قبيلة حرية بنـاء خطة لهـا فأقبلت القبـائل على بنـاء دورها من الغاب ثم بالآجر والحجارة بعـد ذلك ، وقـد تعـددت الخطط والمسـاجد فى المدينـة

واستفحل العمران بهـا واتسع ، كمـا تعددت المصانع والحوانيت بمرور الوقت بهـذه المدينـة •

وقـد تبوأت البصرة المركز الأول فى التجارة فى هـذه المنطقة بسرعة فربطت الهنـد والصين بالعراق ، وربطت العراق بالمغرب ، وقصدتهـا القوافـل القـادمة من كل صوب ، وحطت فيهـا السفن رحالهـا وأثقالها وحملت منهـا المتـاجر والبضـائع ، حتى أصبحت فى العصر العباسى الأول من أهم المراكز التجارية فى الدولة كلهـا ولقبت (بباب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتهـا المتدفق ، بضروب المتـاع والسـلع من أطراف الدنيـا) وأطلق عليهـا اسم قبـة السلام ، وأصبحت واسـطة العرب والعجم •

الكُوفَة

ما كادت القبائل العربيــة النازحة من قلب الجزيرة العربية تستقر فى البصرة وتمضى فيهــا بعض الوقت ، حتى تبينت فى جــو هــذه المدينــة الوليــدة تشــبعا بالرطوبة لوقوعهــا على نهــر دجلة ولكثرة المستنقعات المجاورة للمدينة ، فضايقتهم هــذه الرطوبة ، لتعودهم على حيــاة البــادية بهوائهــا الجاف ، فرغب بعضهم فى البحث عن مكان آخــر يتخذونه بديلا عن البصرة ، ويكون بعيدا عن المستنقعات والهواء المشبع بالرطوبة ، فأخــذ سعد بن أبى وقاص يبحث مع رجاله عن موقع مناسب ويتفق مع رغبتهم ، وكان أن وقع اختيارهم على مكان قرب الحيرة غربى نهر الفرات ، وبدأ العمل فى بناء مدينــة جــديدة قــدر لهــا أن تولد فى نفس الوقت الذى كانت فيــه شقيقتها البصرة تستكمل ملامحهــا ، فقــد بدأت القبــائل العربيــة تضع أساس المدينــة الجــديدة عام ١٧ هـ وبنى الجنود خططا لهم على غرار تلك التى بنيت أو التى كانت لا تزال تبنى فى البصرة — أى من الغــاب فى أول الأمر ، وقــد وقع حادث لهذه الخطط تسبب فى تدميرها عن آخرها بسبب إلتهام النيران لهــا ، فعــاد الجنــد يبنون خططهم من جــديد ولكن

باللبن والآجر ، وفى قلب المدينة تماما كان مسجد الكوفة ودار إمارتها يرتفعان حتى يكونا مقصدا سهلا لكل فرد من السكان .

وقد أعجب على بن أبى طالب بهذه المدينة ، وآنس من أهلها ميلا إليه ، فاتخذ منها مقرا لخلافته وعاصمة لحكمه ، وأصبحت بانتقاله إليها ، حاضرة للدولة الاسلامية فى عهده .

وتميزت الكوفة بطيب هوائها واتساع طرقاتها وخصوبة أرضها وكثرة خيراتها وسهولة مواصلاتها بالعالم الخارجى .

الفسطاط

الفسطاط كلمة مشتقة من لفظ Fossatum اللاتينى ومعناه المدينة العسكرية أو « المعسكر المحيط بخندق » لحمايته من المغيرين ، وقد احتفظ العرب بهذا الإسم حين فكروا فى اتخاذ مدينة لهم تصبح عاصمة لمصر بعد أن فتحها عمرو بن العاص . ولاختيار هذا المكان قصة ، فقد كانت الاسكندرية هى العاصمة القديمة لمصر فى عهد الدولة البيزنطية قبل الفتح العربى ، ولما كانت هذه المدينة الساحلية بعيدة عن قلب الدولة وكانت مهددة فى نفس الوقت بإغارات أسطول البيزنطيين عليها ، فقد رأى عمرو أن يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب أولا قبل اتخاذها عاصمة لمصر الإسلامية ، فأوفد إليه رسولا يتلمس الرأى عنده ، فسأله الخليفة عمر : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل » . فرفض عمر اتخاذ الاسكندرية عاصمة للدولة ، وكتب إلى عمرو بن العاص ، والى مصر وقائد الجيش العربى بها يقول :

« إنى لا أحب أن ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء أو صيف ، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، فمتى أردت أن أركب راحلتى إليكم ، حتى أقدم عليكم ، قدمت » .

واقتنع عمرو بوجهة نظر الخليفة ، وأخذ يفكر فى اختيار مكان آخر يصلح لإنشاء عاصمة ينطبق عليها شرط الخليفة ، وهداه البحث إلى اختيار مكان مناسب يقع عند رأس الدلتا قرب حصن بابليون ، ويشغل المنطقة الواقعة بين النيل وجبل المقطم تحفها الأشجار والنخيل والكروم من الشمال والشرق .

وللمرة الثانية أرسل يستأذن عمر ، فأذن له .

وبدأت كل فئة من فئات الجيش تبنى خطة لها فى المدينة ، وعرف كل قسم منها باسم قائد أو قبيلة ومن الأسماء العربية للقبائل التى أسهمت فى عملية بناء الفسطاط قبائل بنى تميم وبنى عقبه وبنى وائل وغيرها . ووضع أساس جامع عمرو ٢١ هـ وكان أول مسجد يقام فى مصر ، ونمت المدينة بسرعة واتسعت رقعتها وكان لسهولة الاتصال بينها وبين الجزيرة العربية من ناحية ثم لوقوعها بين الوجهين البحرى والقبلى ، أثره فى ازدهار العاصمة الجديدة خاصة بعد أن عمل عمرو على تجديد وتعميق المجرى المائى الذى كان يربط نهر النيل بالبحر الأحمر عند السويس (القلزم) وأطلق عليه إسم خليج أمير المؤمنين ، مما ساعد على توثيق الصلة وتيسير المواصلات بين مصر والحجاز ، كما كان عاملا هاما من عوامل تنشيط التجارة بينهما . وظلت الفسطاط عاصمة لمصر ، حتى تم بناء مدينة العسكر ١٣٢ هـ ، فحلت محلها .

دِمَشق

لم تكن دمشق من المدن التى بناها العرب ، فدمشق مدينة عريقه فى القدم كانت مقرا للحاكم البيزنطى إبان الفترة التى خضعت فيها الشـــام للدولة البيزنطية فلما تمكن المسلمون من فتح الشام ، عهد إلى معاوية ابن أبى سفيان بحكمهـــا ، فلمـــا ولى معـــاوية أمر الشـــام ، اتخـــذ من دمشق عاصمة للولاية العربية الاســـلامية الجديدة ثم أصبحت حاضرة الدولة الأموية بعد ذلك ، نظرا للفترة الطويلة التى أمضاها معاوية فى حكم الشام ، فأحب أهلها وأحبوه ، وأصبحوا له بمثابة عصبية يعـــتز بها ، فآثر أن ينقل عاصمة الدولة الاســـلامية كلهـــا فى عهد الأمويين إلى دمشق .

وارتفعت دمشق فى سنوات معـــدودة إلى مصـــاف العواصم العالميـــة ، وتضاعف فيهـــا العمران ، وسرعان ما ظهرت فيها القصور الضخمة والمبـــانى الجميلة وكانت قصورها ذات أبهـــاء عديدة تجملها الأعمدة الرخامية : تكسى نوافـــذها بالستور وتفرش قاعاتهـــا بالطنافس وتحـــلى بالثريات . ويتوسط كل قصر كبير نافورة : وكان الطراز العربى يغلب على طابع البنـــاء والزخرفة والأثاث .

كما تعددت المساجد والحمامات والحوانيت فى المدينة،

أما بيوت العامة فقد بقيت على طرازها القديم ولكن كان يلحق بأغلبها حدائق صغيرة تزرع فيها الزهور وأشجار البرتقال والليمون ، ويمتد إلى داخل كل دار جدول من الماء الجارى إذ أن الأمويين عملوا على توفير الماء لكل بيت فى دمشق ، فشقوا عددا من الروافد لنقل الماء إليها .

وقد أولى الوليد عاصمته مزيدا من عنايته ، وأنفق على تعميرها وعلى بناء مسجدها الشهير المعروف باسم « المسجد الأموى » ، أموالا طائلة كما أسلفنا وأسرف فى التعمير والتجميل مما عرضه للنقد واللوم .

وكانت دمشق تتميز بأسوارها المنيعة ذات الأبراج العالية ، ولها ستة أبواب هى الباب الشرقى وباب توما وباب الجابية والباب الصغير وباب الفراديس والباب المسدود ، كما تميزت دمشق بأسواقها المغطاة فى شارع طويل تمتد على جانبيه الحوانيت التى تبيع مختلف السلع ، وتخلق حركة اقتصادية دائبة وهو المعروف اليوم بسوق الحميدية .

القَيْرَوَانُ

كان عقبة بن نافع واليـا على برقة ٤٨ هـ من قبـل الدولة الأموية ، وكان تواقا إلى مد نفوذ المسلمين نحـو المغرب ، فطلب من معاوية بن أبى سفيان أن يعينـه على تحقيق هـذه الرغبـة ، وأن يبعث إليـه بجيش قوى يسـاعده على أداء هـذه المهمة ، فرحب معاوية بتلبية طلبـه .

ولم يكتف عقبه بالعـدد الذى بعث به إليه معاوية ، بل عمل على مضاعفـته ، فجمع أعـدادا من مسـلمى شمال إفريقيـا الذين أبدوا رغبـة صادقة فى معاونته ، وانضموا إليـه متحمسين ، وبدأ الجيش — بعنصريه العربى ، القـادم من الشـام والبربرى الذى اعتنق الإسـلام والذى تجمـع من أكثر من جهـة فى شمـال إفريقيا — زحفـة نحو الغرب والتحم المسلمون الذين كانوا يشتعلون حماسة ، بسكان هـذه المنطقـة من البربر وأحـرز المسلمون انتصارات سريعة متلاحقة بعد حرب عنيفة بين الطرفين .

ورأى عقبـه أن يتخـذ قاعـدة للحكم الإسـلامى فى هـذه الجهـة ، وبعد بحث دقيق وقع اختياره على منطقة بعيـدة عن الساحل وبنى مدينـة القيروان التى ما زالت قائمة حتى الآن ، وكان عقبـة حين رفض فكرة

بنـاء المدينـة على الساحل ، يرمى إلى تجنيب عاصمته الجديدة خطر الأسطول البيزنطى وهجماته عليهـا .

وكانت المدينـة تضم عـددا من الخطط لكل قبيـلة خطة تعرف باسمها ، سواء أكانت قبيلة عربية أو بربرية، فـكانت هنـاك خطة قحطان وخطة ربيعة وخطة مضر ، وخطة الخراسانيين وخطة البربر وغير ذلك ، وقـد بنى محمد بن الأشعث الخزاعى العباسى فيمـا بعد سـورا من اللبن يضمها كلهـا ، وقـد هـدم السور وأعيـد بنـاؤه بالحجارة عام ٤٤٤ هـ .

وكان يتوسط المدينـة مسـجد أنشأه عقبـة اشتهر بمئذنتـه الكبيرة المربعـة وكانت عريضة القاعدة ذات ثلاث طبقات متفاوتة الاتساع . وقـد أضيفت للمسجد فى عهـد هشام بن عبـد الملك بعض الأجزاء المجـاورة حتى يتسع لعـدد أكبر من المصلين ، وقـد أدخلت عليه عـدة تجديدات بعد ذلك أهمها ما حدث فى عهد الأغالبة حين بنيت القبه المعروفة بقبة البهو البديعة الشكل .

وقـد أخـذت القيروان تنمو وتتسع مظاهر الحيـاه العمرانية فيهـا فاتخذها عبد اللـه المهدى أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب حاضرة لدولته حتى عام ٣٠٣ هـ حين اتخذت « المهـدية » — وتنسب إليـه — الواقعة على ساحل البحر مباشرة ، عاصمة له ، وقـد بناها خصيصا لهذا الغرض وتقع جنوبى القيروان بنحـو ستين ميـلا فظلت العاصمة حتى انتقال الفاطميين لمصر .

قرطبة

وتقع على الضفـــة اليمنى لنهـر الوادى الكبير فى أسبانيا ، اتخذها عبد الرحمن الناصر (الأول) عاصمة لإمارته بعـد أن وطـد نفوذه فى بلاد الأندلس ، وبنى « بهـا مسجد قرطبـة الجامع » الذى أشرنا إليـه ، كما بنى بهـا قصر الحكم .

وسرعان ما ازدهرت المدينـة ، واتسع العمران بهـا حتى بلغ عدد سكانها فى منتصف القرن الرابع الهجرى نصف مليون نسمة ، كما بلغ عـدد الدور بهـا أكثر من ١٣٠٠٠ داراً ، عـدا القصور الفخمة التى جملتهـا وأشهرها قصر الزهراء ، وسنعرض له فيما بعد ، هـذا إلى جانب الحمامات الجميلة التى بلغ عـددها أكثر من ثلاثمـائة حمـام .

وكان يحيط بهـا ويتخللهـا عـدد كبير من البساتين المثمرة ، التى جلبت إليهـا أنواع النبـاتات والأشجار النـادرة من شتى أنحاء العالم .. وكانت بعض القصور تخصص جانبا كبيرا من مساحتها لزراعة هـذه الأشجار المثمرة ، ونبـاتات الزينـة مما يضفى عليهـا جمالا ، ومنهـا قصـور الروضـة والزاهر والرشيق والسرور والتاج والبديع والرصافة والمعشوق وغيرها من القصور

التى كانت تجمل المدينـــة وتضفى عليهـــا من روعتهـــا وفنهـــا الشىء الكثير .

وقـــد أسهم « هشام بن عبد الرحمن » فى تجـــديد المدينة وتنظيمها وتجميلها ، فجمل قصر قرطبة القديم ، واتخذه مقرا لإمارته ، ومدها بقنوات من الرصاص من الجبـــال القريبـــة ، وأنشأ الصهاريج الضخمة والبرك البديعـــة وأحواض الرخام المزينـــة بتمـــاثيل مختلفـــة الأشـــكال مصنوعة من الذهب والفضـــة والنحاس مما أكسبها جمـــالا فريدا ، وعمرت المدينـــة بالسكان حتى أصبح عـــددهم نحو مليون مواطن .

وقـــد أشاد الشعراء بعظمة المدينـــة ، وأطلقوا عليها اسم جوهرة العـــالم . كمـــا اشتهرت بجامعاتهـــا التى كان يفـــد إليها الطلاب من أنحاء أوربا وكان من أساتذة هـــذه الجامعات الفيلسوف ابن رشد والطبيب بن زهر والأديب ابن زيدون والفقيه ابن حزم وعشرات غيرهم .

بَغـدَاد

« بغـداد » كلمة فارسية معناها بالعربية « هبـه من اللـه » وكانت تطلق بلد ساسانى قديم يقال له بغداد ، يقع على شاطىء نهر دجلة الغربى ، فلمـا وقع اختيار الخليفـة العباسى المنصور عام ١٤٥ ه على هـذا الموقع ليكون مكانا يبنى فيـه عاصمة دولتـه الجـديدة ، آثر الاحتفـاظ بهـذا الاسم .

وتتميز بغـداد بقربهـا من فارس معقـل أنصـار العباسيين وموطنهم ، لهـذا رغب المنصور فى أن يكون قريبـا منهم ، كمـا عرفت هـذه المنطقة — إلى جانب ذلك — بطيب هوائهـا ووفرة خيراتها وجودة زراعتها ، وجريان ماء نهـرها ، وسهولة مواصلاتهـا مع المشرق والمغرب ، ومع الشمال والجنوب على السواء .

وفى هـذا يروى عن المنصور قوله عندما اختار هـذا المكان : « ستكون هـذه العـاصمة الجـديدة مشرعة للدنيـا ، كل ما يأتى فى دجـلة من واسـط والبصرة والأهواز وفارس وعمـان واليمامه والبحرين وما يتصل بهـا ، فإليها يرد ، كذلك كل ما يأتى من الموصل وأرمينيا وما تحمله السفن فى دجلة وما يأتى من دبار مصر والرقة والشام والمغرب ، يحط فيهـا وينزل ... فالحمد للـه الذى إدخرها لى ، وأغفل عنهـا كل من تقدمنى ... ،

والله لأبنيها ثم أسكنها أيام حياتى ، ويسكنها ولدى من بعدى ، ثم لتكونن أعمر مدينة فى الأرض .

وبدأ المنصور العمل ، فاستعان بنحو مائة ألف مهندس وعامل من الممتازين فى مختلف فروع العمارة من بناء ونجارة وحدادة وزخرفة .

ولم يشأ الخليفة العباسى أن يأمرهم بالبناء فوراً كما يفعل غيره ، بل عمد إلى فكرة عجيبة ونفذها ، ذلك أنه أمرهم بتخطيط المدينة بالرماد ، بيوتها وطرقاتها وميادينها ، وبعد أن دخلها من الأبواب المخططة بالرماد على الأرض ، وتجول فى طرقاتها ، أمر العمال بوضع كميات من القش على خطوط الرماد المرسومة على الأرض ، ثم صب النفط عليها ، ووقف بعيداً على مكان مرتفع يحيط به رجاله ومهندسوه أعطى إشارة أضرمت على أثرها النيران فى القش المبلل بالنفط ، وسرعان ما اشتعلت النيران لتجسم مدينة من اللهب تتصاعد ألسنته الحمراء وتتراقص ، وكان منظراً فريداً لمدينة من نار ، وأخذ المنصور يجيل النظر فى تخطيطها ثانية ويرقب نظامها ، فلما أعجبه أمر بحفر الأساس .

وقد جعلها المنصور دائرية الشكل ، واتخذ داره وجامعه فى قلب الدائرة تماماً ، وبنى بجوارهما داراً للحرس ودوراً للدواوين الحكومية . هذا إلى جانب المنازل التى بنيت لأولاده وكبار رجال الدولة من أمراء

وموظفين ، ثم يلى ذلك دور الأهالى التى أخـذت كلها طابعاً واحـداً يغلب عليـه البساطة تتخللها أسـواق المدينة .

وبنى سـوراً للمدينة عرضه من أسفل خمسين دراعاً ومن أعلى عشرين ذراعاً ثـم تبعه بسـور آخر خارجى زيادة فى الحيطة ، ولإكساب المدينة منعة ضد أى اعتداء أو هجوم خارجى يتهددها ، وقـد بلغ ارتفـاع هـذا السور الخارجى ثلاثين ذراعاً وكان عرضـه هـو نفس عرض السور الداخلى ، وقـد زود بعدد من الأبراج .

وقـد تخلل هـذا السور الخارجى أبواب أربع هى : باب الكوفة ، باب البصرة ، باب الشام ، باب خرسان .

وسرعان ما ازدهرت المدينة الجديدة وعمرت بسكانها المتزايدين الذين بلغوا فى عهـد الرشـيد نحو مليونى نسمة ، اشتغل عـدد كبير منهم بالتجارة التى انتعشت بسبب ما كان يرد إليها من بضائع من مختلف أنحـاء العالم ، فأصبحت بغداد مدينه تجارية من الطراز الأول بين مدن العالم أجمع . ففى أسواقها كانت تتوافر أنواع الحرير والخزف والمسك والورق من الصـين ، والطيب والأصباغ والمعادن من جزر الهنـد الشرقية والعـاج والعبيد من إفريقيا ، والمنسوجات والفـراء الثمين من روسيا فكانت المدينة تستهلك من البضائع ما تحتاج إليه وتصدر الباقى للدول الأخرى .

وكانت الأسواق دائما تموج بالحركة والنشاط ، وقد

أفرد لكل حرفة سوق خاص ، فهناك سوق للصناع والتجار وآخر للحدادين وثالث للنجارين وكذلك الحال بالنسبة للبزازين والعطارين والقصاصين والرياحين وغيرهم .

ولم تأل الدولة جهدا فى توفير أسباب الراحة نهم فبلغ مقدار ما أنفق على بناء المدينة نحو ثمانى عشر مليونا من الدينارات أى « ما يقرب من تسعة ملايين جنيه مصرى » أنفق جانب كبير منها على قصر الذهب الذى بلغت مساحته ١٦٠٫٠٠٠ ذراعا ، وسنعرض له بالحديث فيما بعد ، وقد أنشىء قصر الخلد أيضاً لكى يخلد إليه الخليفة إذا رغب فى الهدوء والعزلة ، وكان يقع فى أطراف المدينة . هذا عدا مئات الحمامات التى انتشرت فى أنحاء المدينة .

وكان هناك جهاز بشرى ضخم مهمته تنظيف المدينة . كل يوم وحمل القاذورات من الطرقات إلى خارج المدينة .

فكانت بغداد بحق أضخم مدن العالم ، تعد مركز إشعاع علمى وثقافى وفنى امتد إلى كافة جنبات العالم الإسلامى دون استثناء . وظلت لؤلؤة متألقة حتى داهمها « هولاكو » عام ٦٥٦ فى غزواته البربرية فدخلها ودمرها ، وأحرقها فى وحشية ليقضى على كل معالم الحضارة — بل والحياة — فى المدينة الجميلة المسالمة .

القاهرة

فى ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ ، وفى مكان يقع شمال الفسطاط وعلى بعد ثلاثين مترا شرقى مجرى خليج أمير المؤمنين ، أخذت المعاول تحفر الأرض لتضع أساس مدينة جديدة أطلق عليها اسم « القاهرة » لتكون عاصمة لدولة الفاطميين .

وكان « جوهر الصقلى » قائد المعز لدين الله الفاطمى أول الخلفاء الفاطميين فى مصر ، قد زحف من شمال إفريقيا نحو مصر قاصدا فتحها ، حتى تكون مركزا لدعوة الفاطميين تنطلق منها نحو الشرق لتحقيق أطماع توسعيه أكثر من ذلك . فلما تحقق لجوهر غرضه ، ودخل الفسطاط والعسكر ، لم يشأ اتخاذ إحدى هاتين المدينتين لتكون عاصمة لدولته ، فكان أن بدأ فى تأسيس « القاهرة » لتكون حاضرة للفاطميين ومركزا لنشر دعوتهم الشعبية وعلومهم الدينية ، وقد اختار باختيار هذا الموقع مكاناً حصيناً يصلح لصد هجمات القرامطة الذين كان يهددون حدود مصر الشمالية الشرقية إد ذاك .

وكان جوهر يريد إطلاق اسم « المنصورية » على هذه المدينة الوليدة ، وذلك نسبة إلى المنصور والد المعز لدين الله ولكن المعز هو الذى اختار لها هذا الإسم ،

وظلت القاهرة تحمــل اسمها وتعتز به زهاء ألف عام ، وما تزال تتسع وتتضخم وتزدهر يوما بعد يوم .

وكما هى العادة المتبعة فى ذلك الوقت فى بناء المدن ، أخذت كل قبيلة من القبائل البربرية القــادمة من شمال إفريقيا مــع جيش جــوهر تختط لنفسهــا خطة عرفت كل منهــا باسم القبيلة التى ستقطنها .

وكانت مساحة المنطقة التى اختــارها جوهر محدودة أول الأمر ، أخذت شكل مربع لا تزيد مساحته عن ٣٤٠ فدانا يتوسطها قصر الخليفة المعز المسمى بالقصر المعزى أو القصر الــكبير ، وقــد بلغت مســاحة هــذا القصر وحده سبعين فدانا وكان مخصصا لسكن الخليفة المعــز وحاشيته ، وإلى غــربه أنشأ الخليفــة العــزيز القصر الغــربى .

وإلى جانب ذلك كله كان بستــان الــكافورى الملحق بالقصر الكبير يشغل وحــده ٣٥ فــدانا ويزرع بشتى أنواع الفاكهة والأشجار المثمرة المزهرة ، ثم يتناثر عدد كبــير من القصــور الفخمــة للأمــراء ودور الدواوين الحكومية ، وخزائن السلاح والجند وثــكنات عسكرية وعــدد من المساجد الهــامة على رأسها الجامع الأزهر الذى أشرنا إليــه ثم عــدد من المساجد منهــا مسجد الحاكم والأقمر والصالح ، وكان العمران ينمو ويتسع يوما بعــد يوم فتعددت الدور والمبانى كل منهــا يخدم غرضا عاماً ويؤدى خــدمة للشعب ، فبنوا دار الضيافة

وداراً للوزارة وداراً لسك النقود وخزانة للكتب وداراً للعلم كانت تضم آلاف المجلدات فى كل علم وفن وتفتح أبوابها لكل راغب وتقــدم إمكانياتها دون مقابل ٠

وشغلت القاهرة فى أول عهــدها الأحياء التى تعرف الآن باسم « الأزهــر ، باب الخلق ، الموســكى ، وباب الشعرية ، الجمالية ، الغــورية » ثم أقيم حولها ســـور كبير جعل فيـــه أربــع أبواب هى باب النصر ويقـــع فى الشمال ، وباب زويله فى الجنــوب ، وباب البرغه شرقا وباب الفتوح غرباً ٠

وكان هــذا الســور — الذى بنـــاه جوهر الصقلى أيضاً من اللبن ، ضخماً سميكا ، بحيث كان يمكن لفارسين أن يسيرا على قمته جنباً إلى جنب بجواديهما فى سهولة تامه ، وقد حفر حوله خندقا عميقـــا بلغ اتساعه ستة أمتار بقصد صد هجمات القرامطة أو أى عدو مهاجم ٠

ولكن لمـــا تهــدم جزء من هــذا السور ، أمر بـــدر الجمالى وزير المستنصر الفاطمى بهدمه ، بعـــد أن لمس ضعفه وعــدم احتماله ، وأعاد بنـــاء السور من جديد سنة ٦٤٥ هـ وانشأ فيه نقطاً للمراقبة وكانت أهم أبوابه باب زويلة وهو المعــروف الآن بباب المتــولى — وباب الفرج ، وباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب القنطرة — باب الشعريه الآن — وبابا سعادة والبرقيه ٠

وكانت القصـــور الباذخة تتناثر فى قلب القاهرة وفى أنحائها فتجملها وتعمرها وكانت البساتين الممتدة تلحق

ببعض هـذه القصور ، ويروى كيف كان يزرع فيها من الأزهار : الـورد والرياحـين والنرجس والسوسـن والبنفسج والياسمين والنـوار والاقحوان والشقيـق والبازلاء ومن أشجار الفاكهة المشمش واللوز والرمان • وكان يتعهدها دائماً أكثر من بستانى يعمل مقراضـه فى أوراقها حتى لا تطول فيشوه منظر الحدائق المتناسقة ، مكان كل ناظر إليها يشعر براحة عميقة ويستمتع برائحة طيبة فى نفس الوقت •

وفوق ذلك كله كان الجامع الأزهر مركز إشعاع علمى ودينى قوى ، يسلط أضواءه على العالم الإسلامى كله فى كل مكان ، فيقصده المسلمون من كل فج يطلبون العلم ويتلمسون المعرفة ، فيفتح لهم ذراعية وتتقـدم له كـل مسـاعدة ممكنة دون مقـابل ، ولا يزال جادا فى تأدية رسالته العريقة على أوسع نطاق •

نماذج من القصور العربية

« نقدم فيما يلى نماذج — مجرد نماذج — لبعض القصور العربية ، تصور مدى ما أنفق عليها من مال ، ومدى ما أدخل عليها من تجميل وأناقة ، حتى أصبحت القصور العربية مثلا يحتذى فى العمارة والزخرفة ، والروعة ، وسنكتفى بعرض صورة وصفية لقصر من الشرق فى بغداد ، ولقصرين من الأندلس فى قرطبة واشبيلية اعتزازا بمجد عربى عريق تألق زمنا طويلا فى ربوع أسبانيا ... » .

قصر الذهب « بغداد » :

قلد العباسيون الفرس فى بناء القصور الضخمة فامتلأت بغدادبعدد كبير منها ، بنى بعضه الخلفاء لهم ولأبنائهم ، وبنى بعضه الآخر الوزراء وكبار رجال الدولة ، إذ تنافس الجميع فى بناء القصور وتزيينها وتأثيثها بأفخم الرياش ، ولكن كان هناك قصر واحد يمثل دائماً الصدارة بينها جميعاً ، هو قصر الذهب الذى أنشأه « أبو جعفر المنصور » فى قلب بغداد عاصمة العباسيين .

وكان هذا القصر — أو دار الخلافة كما كان يعرف — يكاد يكون مدينة قائمة بذاتها تحيطه أسوار طويلة تمتد لفراسخ عديدة وتضم بين جنباتها كل ما يمكن أن يتوقعه إنسان فى مدينة لا فى قصر .

فمن بساتين واسعة تضم أندر النباتات والزهور والأشجار إلى الأنهار الجارية التى حفرت خصيصاً لتمد سكان القصر بحاجتهم من الماء دون ما حاجة إلى نقله على ظهور الدواب مما يشوه جمال القصر ، إلى البرك الصناعية المخصصة للزينة أو الاستحمام ، تزينها تماثيل للسباع والطيور ينبثق الماء من أفواهها فى منظر ساحر خلاب ، إلى قباب هائلة وأروقه فسيحة ، أهمها قاعة العرش وكانت تسمى مجلس الأمير وهو المكان الذى كان يستقبل فيه الخليفة — الذى هو أمير المؤمنين فى نفس الوقت — كبار الزوار ومندوبى الملوك والحكام .

وقد خصص للخليفة مقعد مميز يحيطه عدد من المقاعد ، زينت كلها بالأحجار الثمينة وخاصة اللؤلؤ .

وقد كانت الأرض مكسية بالرخام المجزع ، ومفروشة بالأبسطة والديباج بينما حليت السقوف بالصور والرسوم وأقيمت على الأبواب ستائر من المخمل المحلى باللازورد ، وكانت بعض الأبواب من الروعة بحيث اعتبرت ثروة ثمينة فقد اتخذت مساميرها من الذهب والفضة ، وتفنن الصناع والعمال فى نقشها وتزيينها برسوم دقيقة فى ذوق بارع سليم فجاءت ذات طابع عربى أصيل .

وقــد بلغ ارتفاع القصر ثمانين ذراعا وزود بأجهــزة تكيف الهواء لتجلب النسيم الرطب فى الجو الحار ، وهى عبارة عن مراوح مبللة بماء معطر مثبتة فى السقف يتدلى منها حبال ، إذا جذبت هب نسيم بارد مــع رائحة طيبة تعطر الجو .

وقــد بالغ « المنصور » فى التأنق فى بناء هذا القصر فأنفق عليــه الأمــوال الطائلة ، وزوده بأفخم الرياش التى جمعهــا من شتى أنحاء العــالم ، حتى جعل منــه تحفة فنيــة بديعة .

وكان الأمــراء وكبــار الزوار إذا قــدموا إلى دار الخلافة ، دخلوها راكبين نظرا لضخامتها وامتداد الطرق فيها مسافات طويلة ويظلواراكبين حتى إذا وصلوا إلى الموضع الذى يريدون ترجلوا ، ودخلوا يسبقهم ويتبعهم الحجاب ورجال القصر والخدم .

ولم ينافس قصر الذهب الا شقيقه « قصر الخلد » الذى بناه المنصور أيضا ، وقد سمى كذلك تشبها بجنة الخلد ، وكان القصران صنوان فى الروعة والفخامة وقد بنى على شاطىء نهر دجله الغربى تجاه باب خراسان .
وإلى جانبهما وجــدت قصور أخرى بنــاها الرشــيد والواثق والأمراء والبرامكة وقــد تبارت كلها فى العظمة والأناقــة بعــد أن جملت بالحــدائق الغنــاء وزودت بالقنوات المعطاة لنقل المــاء إليهــا .

قصر الزهراء « قرطبة بالأندلس » :

على بعد ثلاثة أميال من مدينة قرطبة ، التى اشتهرت بقصورها الفريدة ومبانيها الضخمة وبساتينها النضيرة ، وإلى الشمال الغربى منهـا قرر « عبد الرحمن الناصر » أن يقيم قصراً لم يبن مثله من قبـل ، تتحـدث بعظمته الأجيال المعاصرة واللاحقة ، وأن يطلق عليه اسم جارية له اسمها الزهـراء أرادت أن تخلد اسمها ببنـاء هـذا القصر ، فحقق لهـا رغبتها ، وكان إن أعلن بـدء ميلاد قصر الزهراء ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) .

ولكن هـذا القصر ، ما لبث أن عمر المنطقة كلهـا ، وتعـددت المبـانى الفخمة حوله ، حتى أصبح مدينـة كاملة أنيقة تحمل اسم « الزهراء » ، ويمكن أن نعتبره أن شئنا ضاحية من ضواحى قرطبة إذ كنا نقيس الأمور بمقاييس الوقت الحاضر ، أو مدينة قائمة بذاتها كمـا كانت تحلم الزهراء ، وكما أراد لها عبد الرحمن الناصر .

وقـد بنيت هـذه المدينة على سفح جبل ، وشملت ثلاثة أحياء متدرجة فى البناء على هـذا السفح ، فكانت فريدة فى طـرازها وبنائها وشـكلها ، استخدمت فيهـا أعمدة رخامية مختلفة الأحجام منهـا الأبيض والوردى والمجزع بلغت ٤٣١٢ عمـوداً استوردت من قرطـاجنه وتونس وسوريا والقسطنطينية .

وقـد استغرق بنـاء هـذه المدينة أربعين عاماً وكان يعمل فى بنائها عشرة آلاف عامل يستخدمون ١٥٠٠ دابة كل يوم ، وقـد أنفق عليها من الأموال ما قدره البعض بما يوازى ثلث خراج الدولة كلها فى العام .

أما قصر الزهراء نفسه الذى بدأ عبد الرحمن الناصر بناءه ولم يستطع إتمامه ، فقـد قام ابنـه الحكم بهذه المهمة وتفنن فى تجميله وتزيينـه ، فبلغ حـد الروعة ، حتى غـدا أروع بلاط فى أوربا كلهـا ، يقصده السفراء من أباطرة وملوك الدولة البيزنطية وألمـانيا وإيطاليـا للتمتـع بمشاهدته ، ومحاولة اقتبـاس شىء أو فـكرة يستوحونها منـه وينقلونها إلى بلادهم .

وقـد كسيت ردهاته بالرخام ، وغطيت حواجز هذه الردهات بالمـرمر وزخرفت بأفاريز ذات ألـوان جميلة جذابة . أما سقفه ، فقـد زين بنقوش ذهبية لازوردية متشابكة .

كمـا كسيت حوائط القصر بالرخام السميك الخالص والمذهب . وكان للقصر ثمانية أبواب إذا دخلت الشمس منها أرسلت شعاعها فى صـدر المجلس فتحـدث أنوارا تأخذ بالألباب بسبب انعكاسها على الأحجار الثمينة التى تزين كل ركن فى القصر . أما المجلس نفسـه فقـد زين بتماثيل من الذهب المرصـع اتخذت أشـكال الأسـود والغـزلان والتماسـيح والثعـابين والعقبان والحمام والديكة والدجاج ، وكانت كلها تحيط بركة مائية بديعـة

الصنع ، وتنفث الماء من أفواهها إلى قلب البركة فى حركة دائبة لا تنتهى ، فكان منظراً فريدا يأخذ بمجامع القلوب •

وكانت قبة الخليفة تقوم على أعمدة رخامية بيضاء ذات تيجان مذهبة وتشرف على الحدائق الواسعة ذات الأشجار المثمرة والرياحين والزهور والتى تتخذ منها الطيور الأنيفة الجميلة مسرحاً لها ، وإلى جانبها بحيرة للأسماك النادرة التى كان يقدم لها يوميا ٨٠٠ رغيف من الخبز لإطعامها ، وعلى مقربة من قبة الخليفة كان يقبع حوض بديع الصنع من الرخام السماقى مملوء بالزئبق فى شكل بديع ساحر خاصة إذا سلطت عليه أشعة الشمس أو انعكس عليه ضوء القمر ، فيأخذ فى الحالين بالألباب •

وقد جند لحراسة هذا القصر عدد كبير من المماليك المجلوبين من مختلف أنحاء أوربا وخاصة من الممالك الصقالبة الذين كانوا يشترون إذ ذاك بالمال ، حتى عرف هذا الحرس باسم الحرس الصقلبى •

وقد بنى الناصر مسجداً يعد من آيات الفن الإسلامى ولم يبخل عليه بمال ، وأقام فى وسطه نافورة يجرى فيها الماء تحيطها الأعمدة الرخامية الوردية البديعة الشكل ، كما أراد أن يؤمن الماء للمصلين فأمر بحفر قناة عبر الجبل حتى لا يحرم المصلون من الماء إذا ما انخفض ماء نهر الوادى الكبير

وبلغت طــول القناة ثمانـــين كيلو مترا فكانت فريدة فى طولها وصنعها وما زالت آثارها باقية حتى الآن •

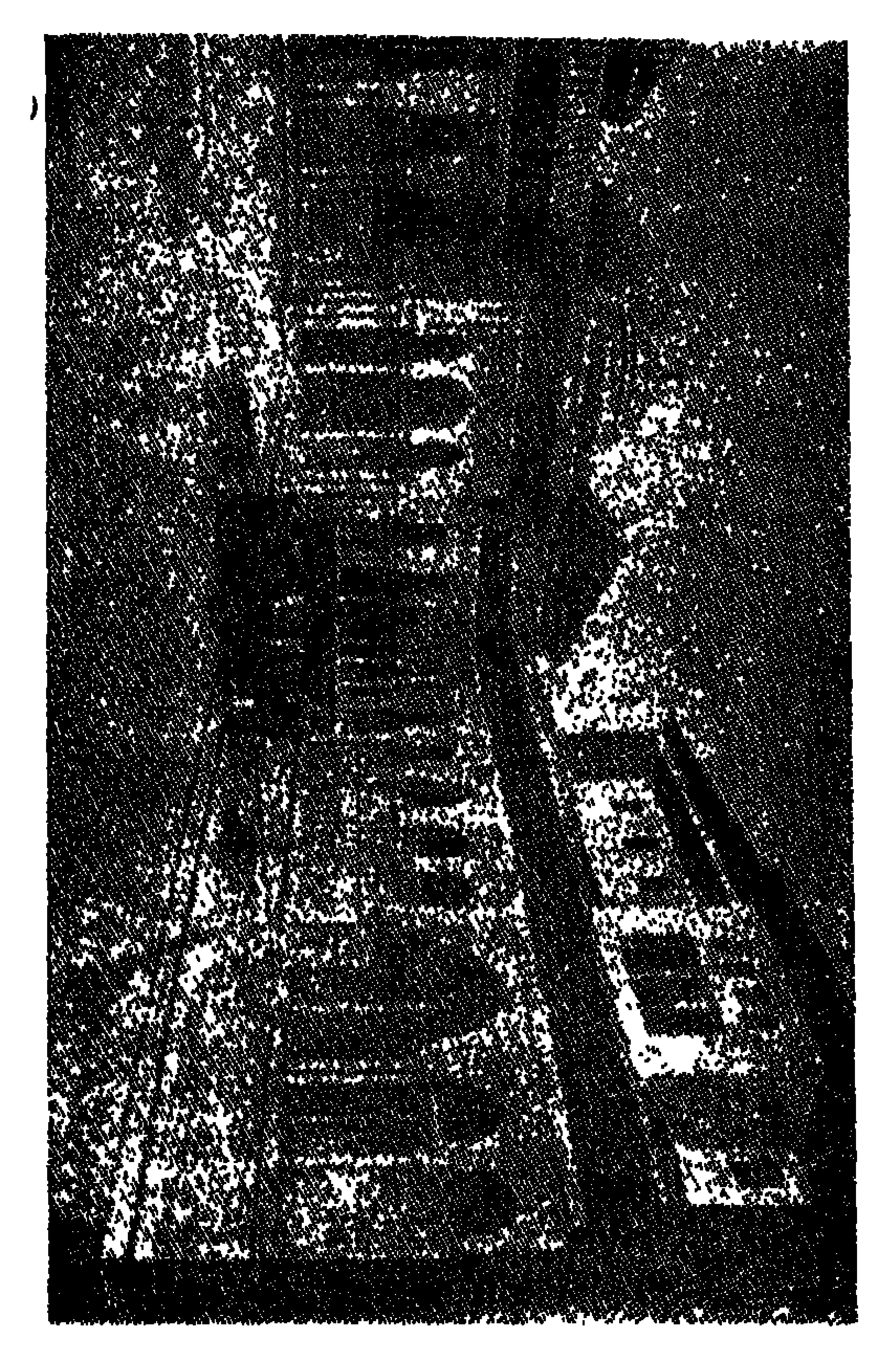
قصر الحمراء « لؤلؤة الأندلس الخالدة » غرناطة :

بناه بنو الأحمر الذين استقلوا بغرناطة ٦٣٠ هـ ويعد هذا القصر قمة روائع فن العمارة العربى فى الأندلس ، وما يزال قائما حتى الآن رغم ما تعــرض له من تخريب وتدمير على يــد الأسبان بعــد خروج العــرب • زاره فــكتور هوجو واذهلة ما رأى من عظمة وفنـــون ماثلة فى كل أجزاء القصر فخلد زيارته هــذه بنشيــد يقــول فيــه : « أيتها الحمراء •• أيتها الحمراء •• أيها القصر الذى زينتك الملائكة كما شاء لك الخيال • فجعلت منــك آية للانسجام •• أيتهــا القلعة ذات الشرفات المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان •• حينما تنعكس أشـــعة الشمس الفضية على جــدارنك تأخذ بمجامع القلوب • وحتى فى الليل تسحرين الألباب •• أيتها الحمراء •• أيتها الحمراء •• » •

ونترك الحديث عن هذا القصر للعالم الفرنسى المحقق « جوستاف لوبون » الذى يقول . « زرت هــذا القصر ، ووجدت أن كل ما فيــه عجيب ، ويمكن أن نقــول بحق انه لا يوجد فى أوربا كلها قصر آخر يضارعه » • وأروع ما فيه قاعة الأسود التى قال جيرول دو برانجه عنها : (يعجز الإنسان عن بيان ما يشعر به حين يمر من قاعة البركه ويدخل قاعة الأسود ، فيرى فيهــا الاروقه التى

تزينها الأقواس المنــوعة المزخرفة بالنقوش والزخارف المتدلية ، وتقــع عينه على غابة من الأعمدة ، التى وضع بعضها منفــرداً وبعضها مزدوجا ، وبعضها مجتمعاً على شكل بالغ حد الإبداع ، يبصر من خلالها التماع ميــاه فسقية الأسود الرائعه ، ولم أصدق أن هــذه الزخارف من الجص إلا بعد أن حللها لى أحــد أعضــاء المجمع العلمى مسيو فريدل مما جعلنا نعترف بإتقــان صــنع ذلك الجص الذى قاوم تقلبات الجو خمسمائة عام دون أن يفسد ، ولا أعتقد أن مهندسا أوروبيا يمكن أن يعاهد على صنع نوع من الجص يستطيع أن يعمر مثــل هــذا الزمن البعيد بلا عطب) .

والحــق أن هــذا القصر الذى أقيم فى غرناطة على منحدر جبل شليد ويشرف على مروج واسعة ، يعــد آية من آيات فن البناء العربى . ويعــد من أجمل قصــور العالم قاطبة ، ويتميز بقاعتــه الرائعــة ، قاعة الريحان وهى قاعة فسيحة يبلغ طولهــا ٣٤ متراً وعرضها عشرين متراً ، تتركز روعتها فى حــوض المــاء المستطيل الذى يتوسطها والذى تقوم حوله شجيرات الريحان برائحتها الزكية وتتميز بعقودها العربية التى تستند إلى أعمــدة مرمرية كركائز للمقاصير ، وما زالت قائمة ومحتفظة بكل مافيهــا من جمال وبهجــة .



« بهو السباع بقصر الحمراء في غرناطة ، تتجلى فيه روعة الفن العربي الأصيل »

وقــد زود القصر بالحمامات الملكية التى تشغل قاعة كبيرة مغطاة بقبــة كبــيرة ذات أقمار ونجوم ، اقيمت على عقــود رشيقة تحيط بهــا شرفة أعــدت لجــوقه موسيقيــة من الحســان لتشنف آذان المستحم بعــد خــروجه من الحمام ، فيستلقى بعــد ارتــداء ملابسه لينال قسطا من الراحة مــع أنغــام الموسيقى الهــادئة من عزف سرب الموسيقيــات البارعات ، ولم تخل هــذه الحمــامات من الزخارف والنقــوش وأبيــات الشعــر المناسب للمقام .

وكان القصر فى الجملة تحفة رائعــة أذهلت الأسبان لمــا تسلموا تقاليد الحكم بعــد خروج العــرب .

فماذا كان مصيره ... ؟

يؤسفنا أن نجيب على هــذا التساؤل ، والألم يعصر قلوبنا ، أن الأسبان أتوا فى هــذا القصر بمــا لا يخطر على بال من تخريب دافعــه الحقــد الأعمى والتعصب الأحمق فقــد طمسوا النقــوش الجميلة التى تــكسو جدران القصر وغطوها بطبقة كثيفة من الكلس ، ونزعوا ألواح المينــاء التى كانت تزين ردهات القصر ، وباعــوا بعض أبوابه وأحرقوا أغلبها وبعــد أن أشبعوا نزعتهم الإنتقامية العمياء ، اتخذوا من القصر ســجنا للمجرمين ومن جزء آخر منــه مخازن لأدوات الزراعة .

ومرت الأعــوام ، وبدأ الأسبان يتنبهون إلى بشاعة الجريمة التى ارتكبوها وإلى فداحة ما أقدموا عليــه ،

بعــد أن اتضح لهــم أنهــم يجنون بذلك أيضــاً على مورد مالى يمكن أن يدر عليهم الذهب لو استغلوا هــذا القصر الذى يعــد إحدى عجائب الدنيــا فى الأغراض السياحية ، فعملوا على إزالة التــكليس الــذى يخفى النقوش الرائعة ، ورمموا الأجزاء التي هدموها ونجحوا فى جــذب مئــات الآلاف من الســياح إليــه كل عام ، ليعيشوا فى رحاب العــرب وفنونهــم المبــدعة الخارقة بعض الوقت يستلهمــون فيــه ذكــرى شعب مــكافح ويستمتعون بروعة فن أصيل .



« بعض الأعمـــدة الرائعة »
« التى نجت من التخريب فى قصر الحمراء »

الموسيقى والغناء

« رغم ما قرره كثير من الفقهاء من كراهية الاستماع الى الموسيقى ، الا أن العرب أولوا هذا اللون من الفنون الجميلة عنايتهم واهتمامهم ، وأقبلوا عليها وخاصة فى عصور التحرر بعد أن اتسعت رقعة الدولة وساد الترف ، وكان من الطبيعى أن تقترن الموسيقى بالغناء فى عصرهما الذهبى فى العالم الاسلامى مشرقه ومغربه ... » .

عرف العرب الحداء منذ أقدم العصور طرداً للوحشة فى الطريق واستحثاثا للإبل فى السير . والحداء لون بدائى من ألوان الغناء العربى ، كانوا يرددون معه الرجز الذى يؤدى منغماً فيبدد شعور المسافر بالوحدة والملل ، فلما جاء الإسلام واختلط العرب بغيرهم من أبناء الأمم المجاورة ، استمعوا للموسيقى والغناء فى فى فارس بوجه خاص حيث كان البلاط يولى هذا النون من الفن عناية ملحوظة .

ولكن طوال عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين لم يعرف أن هذا الفن شغل بال أحدهم ، لاهتمامهم بما هو أجدى وأهم ، ونعنى به الفتوحات ونشر الدين وتوطيد نفوذ المسلمين وتذليل العقبات والقيام بما يتطلبه الأمر من الاصطلاحات . ولكن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى أن الرسول وكبار الصحابة كانوا يطربون لصوت بلال ، وكان صوته ندياً له رخامة خاصة يحرص

المصلون على الاستمتاع بها وتذوقها وهو يؤذن للصلاة .

وجاء العصر الأموى ، وبدأ الغناء والموسيقى يزدهران كفنين حديثى عهد بالدولة الإسلامية ، وبدأ الخلفاء يعقدون لهما الجلسات الخاصة وينفقون بسخاء على المغنين والموسيقيين وكان معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد من الخلفاء الأمويين الذين انتعشت الموسيقى فى عهدهم .

وحل بمجىء العباسيين العصر الذهبى للموسيقى والغناء فى الإسلام ، فقد أولى الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة والوزراء « وخاصة آل برمك وآل الربيع » عناية بالغة بهما ، فكانت مجالس الطرب والموسيقى التى يقيمها الخلفاء وغيرهم لها شهرتها العريضة التى امتدت من بغداد إلى بقية أنحاء الدولة الإسلامية ، فتعددت الحفلات الموسيقية الغنائيه ، وانغمس العباسيون فى الطرب ، بعد أن تدفقت عليهم الثروات من كل صوب ، وعقدوا المجالس لهذه الحفلات فى قصورهم فى أمسيات حالمة أو صاخبة تمتد إلى الهزيع الأخير من الليل فى كثير من الأحيان ، وتتسم بطابع من الروعة والبهاء ، والفخامة لا نظير له ، واستطاب الخلفاء هذه المتعة التى كانت تتفق وعيشتهم انباذخة المترفة وإسرافهم الملحوظ . وتشبهوا فى هذا كله بالفرس ، فكانوا يتصدرون المجالس ، يحف بهم

عشرات من صفــوة رجال الدولة والحراس ، ثم يعطى الخليفة إشارة البدء فتنفرج ستارة من المخمل أو الحرير عن سرب من الجوارى يعملن إلى جانب المغنى ويضربن الدفوف ، ويتبسط الخليفــة مــع المغنى أو المغنيــين ويشجعهم ويجزل لهــم العطاء حتى قيل أنه كان يعطى أحيانا ألف ألف درهم •

وكان من أشهر المغنين إبراهيم الموصلى وإنه اسحق •

وقــد نبغ « إبراهيم الموصلى » فى فن الغنــاء وضرب فيــه بسهم وافــر ، ولقن أصول هــذا الفن لعــدد من الجوارى تلبيــة لطلب الخلفاء ، وكن يتقــاضى مرتبــاً شهرياً ثابتاً قــدره عشرة آلاف درهم عــدا الهــدايا والهبات • وقــد تميز بسرعته فى أداء الألحان التى كانت طيعة له ومواتية دائمــاً وكان يقــول : « إذا أردت أن أبدع لحنا ، فلا بــد أولا أن أتخلص من الهم وأطــرده من فــكرى ، وأتمثل الطرب فتسارع إلى الألحان التى أريدها » •

أما ابنــه « اســحق » فــكان كأبيه موسيقيا بارعا تفرغ لوضــع الألحان وآدائهــا ، وكان إلى جانب ذلك أديبا مطبوعا فوضع كتاباً فى الغناء ضمنه أهم الأنغام والطرائف الفنيــة التى صادفتــه •

وقــد تميز اسحق بطابعه الخاص فى الغناء فاستحوذ على إعجاب الخلفاء ، وعطاياهم الثمينــة ومنهــا هبــة قــدرها ٤٠٫٠٠٠ ديناراً أمر له بهــا الأمــين ذات ليلة

بعـــد أن استمع إليه وأعجب به ، والحق أن الأمين كان دائم الإعجاب به ، وكثيراً ما وصفه بقوله « أنه أصدق وأعف وأكثر دينا وأمانة من غيره » .

ومن المغنـــين الآخـــرين الذين برعوا فى هـــذا الفن إسماعيل أبو القاسم ومنصور زلزل ، وبرصوم ، ومسكين المدنى المعـــروف بأبى صـــدقة كما بـــرع فى الموسيقى الكندى والفارابى الذى أصطنع آلة موسيقية من عيدان يركبها ويضرب عليها فتختلف أنغامها باختلاف تركيبها ، ويروى أنه حضر مجلسا لسيف الدولة فغنى فيـــه حتى أضحك الحاضرين ثـــم أعاد تركيب العيـــدان فى آلتـــه الموسيقية وغنى فبكوا جميعاً وأعاد تركيبها للمرة الثالثة وغنى فناموا جميعا فتركهم وانصرف ... ؟ !

ورغم براعة المسلمين فى الموسيقى فإنهم لم يعرفوا النوتة الموسيقية حتى يسجلوا عليها تراثهم الموسيقى لما فذهب كله أو جله ولم تبـــق إلا بعض رمـــوز غامضة ساقتها إلينا بعض الـــكتب التى اهتمت بهـــذا الفن وفى مقدمتها كتاب الأغانى .

ومن الآلات الموســـيقية التى عرفهـــا العـــرب الدف والمزمار والطنبور والعـــود والرباب والصنج والنـــاى والقثار والأرغن ، هـــذا إلى جانب القـــانون الـــذى اخترعه الفـــارابى .

ويروى أن الخليفـــة الواثـــق كان يهـــوى الموسيقى ويحدقها وأنه نجح فى وضع أكثر من مائة لحن ونغمة

على العـود الذى برع فى العزف عليـه .

وفى الأنـدلس لـم يـكن اهتمام خلفـاء بنى أمية بالموسيقى والغناء أقل من اهتمامهـم بالفنـون الأخرى أو من اهتمام زملائهم خلفاء بغداد بها ، فقـد شجعوا المغنيين والموسيقيين ، واسـتقدموهم من كـل مـكان وأجزلوا لهم العطـاء بسخـاء ، وكان أشهر المغنيين فى الأندلس على الاطلاق أبو الحسن على بن رافـع الملقب بـ (زريـاب) وقـد وفـد على الأنـدلس فى عهـد عبد الرحمن الأوسط بن هشام (٢٠٦/٢٣٨ هـ) ، وقـد جاء زرياب إلى قرطبـة بعـد أن تلقى الفن على يـد أستاذه اسـحق بن ابراهيم الموصلى وبذه فيـه ، وكان زرياب مولى المهدى العباسى ، وقد لزم أستاذه اسحق فى بغـداد فترة تعلم فيهـا الغناء والعزف على العـود وبرع فيهما حتى فاق أقـرانه ، وحدث مرة أن غنى فى حضرة الرشيد فاستحوذ على إعجابه وكاد يطير طـربا مما أوغر صـدر أستاذه اسحق عليه فخشى زرياب أن يحقد عليه اسحق ويقضى عليه ، وآثر السلامة فهرب قاصداً الأندلس .

وكان الخليفة عبد الرحمن مولعاً بالغناء ، فرحب بـه وقربه إليـه وأغدق عليه من العطايا والهبات الـكثير ، وأنزله فى أحسن الدور وحمل إليـه كل ما يحتاجه وكتب له فى كل شهر مائتى دينار من جيبه وثلاثة آلاف دينـار

من بيت المـــال كـل عام ، وأقطعـــه عـددا من الدور والبساتين والضياع •

وســـاعد ذلك كله زرياب على التفرغ لفنه ، وتعهـــد جـــوارى القصر بالتعليم ، وبفضله بـــرعن فى الغنـــاء والعزف على العود ، وكان إلى جانب براعته فى تنسيق الألحان وإبداعها ، فصيحاً حسن الصوت حلو الحديث يحفظ عشرة آلاف مقطوعة بألحانها ، وساعده على ذلك تعلقه بالشعر والأدب •

ومن المغنين الذين اشتهـــروا فى الأندلس أيضاً عنون وزرقون وكانا من أوائل من أدخل الغنـــاء والموســـيقى العـــربية إلى الأنـــدلس فى عهـــد الحـــكم بن هشـــام (١٨٠/٢٠٦ هـ) •

وهكذا تبارى العلم الإسلامى فى المدن الهامة وخاصة فى بغـــداد شرقاً وقرطبة غـــرباً فى الأخذ بيـــد هـــذين الفنين الجميلين ، حتى كان عهـــد هاتين العاصمتين بحق العصر الذهبى للغناء والموسيقى العربية •

المراجع الهامة

(أ) المـراجع العربيـة :

١ — ابن جرير الطبرى : تاريخ الأمم والملوك
٢ — ياقوت الحموى : معجم البلدان
٣ — اليعقـوبى : تاريخ اليعقوبى
٤ — حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى
٥ — عباس محمود العقاد : أثر العـرب فى الحضارة الغربية

(ب) المراجـع المترجمة :

٦ — جوستاف لوبون : حضارة العـرب : ترجمة عادل زعيتر
٧ — برنارد لويس : العرب فىالتاريخ ، ترجمة نبيه فارس
٨ — ف.بارتولد : تاريـخ الحضـارة الإسلامية ، ترجمة حمزه طاهر
٩ — آدم متز : عصر النهضة فى الإسلام

(جـ) المراجـع الأفرنجية :

10.—Thomas Arnold ; The Preaching of Islam.
11.—Stanley Lane-Pole ; History of Egypt in the Middle Ages.
12.—H. B. Philby ; The Background of Islam.
13.—L. B. Sedillot ; Histoire Generale des Arabes

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
هذا الكتاب	٣
مقدمة	٥
ألوان من فنون العرب الصناعية	٨
فن العمارة الإسلامية	١٣
المساجد فى الإسلام	٢١
المسجد النبوى الشريف	٢٥
مسجد عمرو بن العاص	٢٩
جامع عمر بالقدس	٢٩
المسجد الأموى بدمشق	٣١
مسجد قرطبة بالأندلس	٣٣
الجامع الأزهر بالقاهرة	٣٦
المدن والقصور العربية	٣٩
البصرة	٤٢
الكوفة	٤٤
الفسطاط	٤٦
دمشق	٤٨
القيروان	٥٠

الموضوع | صفحة

- قرطبـــة ٥٢
بغـــداد ٥٤
القـــاهرة ٥٨
قصر الذهب ببغداد ٦٢
قصر الزهراء بقرطبة ٦٥
قصر الحمراء بغرناطة ٦٨
الموسيقى والغنـــاء ٧٤
المراجع الهـــامة ٨٠

للمـــؤلف

١ ـ من المحيط إلى الخليج « دار نهضة مصر »

٢ ـ تاريخ العرب الحديث

« مؤسسة المطبوعات ، والمطبعة الأميرية »

٣ ـ تاريخ الوطن العربى فى العصور القديمة

« دار المعارف ، والمطبعة الأميرية »

٤ ـ تاريخ ج٠م٠ع والوطن العربى

« مؤسسة المطبوعات ، والمطبعة الأميرية »

٥ ـ العـــلوم عند العرب « دار نهضة مصر »

٦ ـ الفن والعمارة عند العرب « « «

٧ ـ التجارة والاقتصاد عند العرب « « «

٨ ـ الحـــكم والإدارة عند العرب « « «

٩ ـ أثر العرب فى الحضارة الأوربية « «

١٠ـ أضواء على حضارتنا العربية

« المؤسسة العربية الحديثة »

١١ـ « « قوميتنا العربية

« المؤسسة العربية الحديثة »

١٢ـ « « الحـــكم المحلى

« المؤسسة العربية الحديثة »

١٣ـ « « قناة السويس

« المؤسسة العربية الحديثة »

١٤ـ أضواء على الجامعة العربية
« المؤسسة العربية الحديثة »
١٥ـ « « الأمم المتحدة
« المؤسسة العربية الحديثة »
١٦ـ الوطن العربى والإسلامى « تحت الطبع »
١٧ـ ملامح التاريخ الإسلامى « تحت الطبع »